ناجي الشكري

دم الأبنوس



دم الأبنوس

رواية



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

ت : ٣٤٤٨٣٦٨ ، ف : ٣١٤٨٠٤٢

ناجي الشكري

دم الأبنوس

رواية



الكتاب : دم الأبنـــوس
روايــة

الكاتب : ناجــي الشكـــري

الناشر : مركـز الحضـــارة العربيــة

الطبعة الأولى
يناير ٢٠٠٠

رقم الإيداع : ١١٥٨٩ / ٩٩
الترقيم الدولى: I.S.B.N.977-291-170-1

الغـــلاف :
لوحة الغلاف للفنان : عمـــر جهــــان
تصميم الغلاف : محمـــود الهنـــدى
جرافيــــك : أرت سمــــــارت

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : صفاء الشريف

إلى كل «منيف» مُعلَّق بين السماء والأرض ...

وإلى منْ لم يُلطِّخْه الزيت الأسود ...

ناجي

فبعض الذي يبدو الذي أنا ذاكرُ

وبعض الذي يخفي عليَّ الذي يبدو

المتنبي

الفصل الأول

مساء التليفزيون ... وزغرودة جارتي

أجوس بين أشيائي المبعثرة بالأرجاء لاهيًا ... لاهثًا ... هاربًا من زمن ضنك ، أعرف وجهته على وجه الدقة والتحديد ، أدير شريط الفيديو ، فهمت من لغط وصيحات أولادي أنهم مبهورون به . رأيت فيما يراه الصاحي خيوطًا من الخوذات المموّهة تجيء وتمشي في عرض استعراضي مثير . الوجوه حمراء وبيضاء ، وأخرى قمحية وسمراء ،هجين من الأجناس ، تفتحت بهم الأرض لتوّها ... الرايات في أقصى الشاشة ، تبدو قلقة مضطربة ... عددتها راية راية ، ففاقت الثلاثين العدد المفترض للمغامرة الكبرى ... أعدتُ العدّ ثانية وثالثة ، خمنت بأن المسألة تتصل بتكرار راية ما لأكثر من مرة . اكتشفت بالمعاينة الدقيقة أن المستحوذ عليها كميًا يمتُّ بصلة وثيقة للنجوم ... وتسميات أحفظها عن ظهر قلب ، «النجوم اللاّمعة» ، «حرب النجوم» .... الخ .... أرتال الجنازير والعربات تتزاحم بالتضاد ... لكل منها علامة مميزة تفردها وتخصها بالأحادية ... فهذه تزمجر بصوت شبيه بالزئير .. وثانية تبدو اندفعاتها القوية وكأنها تتوق للحظة ذاتها ... وثالثة تناور بميلة التباهي وكأن مصانع العالم لم تنجب غيرها !! وفجأة ، دوّتْ زغرودة ، فقفزتُ ألجم زوجتي المحتجة :

- أووه ، هذه بالتليفزيون .

- النسوان سواسية كأسنان المشط .

ضربتْ كفًا بكف هامسة :

- هالحين انشوفْ ، ستروح في داهية .

تحوّل المشـهد لبحر يغـص بسفن كبيـرة ، أبراجها تدور باحـثة ولو على بعـوضة ، على ظهـر واحدة منهـا بدت مـجندة يانكية شـقراء ، بالشـورت القصيـر ، مشغولة بشعرها المشاكس للريح .

لمحت عن بعـد سفـينة متـواضعـة اسمـهـا مكتوب على جـانبهـا بخط عـريـض «ذات الـصـواري» ، تجـاهد للحـاق بالحـاملة الكـبـرى ، أفـواج الرجـال تتـزاحم بهـمّة عـاليـة للظفر بالرؤيـة ، فيـما مـعلق الشـريط يزعق بصوت جهور : هاهـم أحفاد «عبد الله بن أبي السرح» يخـرجون تباعًا في استعراض مهيب .

لكن المذيع صمت ، حين بدأت المجندة توجه طائرة حطت لتوِّها وكأنها فراشة .

عانقت الطيار ، قبَّلته قـبلة طويلة . ثم قفزت بوسط ((ذات الصواري)) هاج الأحفاد وماجوا ، رقصوا معها على أنغام ((السكسفون)) ، بعلو يعلو بالهـمَّة ولا يخـفضـها .... دفـعتْ أحدهم في دعـابة ، فارتمى على ظـهره غائصًا بالخليج ، دون أن يعبأ به أحد ، شهيداً مات الحفيد ، وشهيداً سيبعث مع الصديقين والصالحين !!

ثم انتقل المشهـد لصالة كبرى مليـئة بـ (قادة العمليات) . صـوت وحيد يجلجل بصدى لا يزول بالذاكرة ، لواحد مترهل العمر والجثة ، بدأت ثيابه المموَّهة وكـأنها خـارجة لتـوها من الوسادة !! علامـة رتبتـه العاليـة بجوار كتفه، في عادة غير مألوفة ...

- يا امرأة ، حركي يديك وأعطني كوب شـاي ، رأسي سينفجر من هذا الضجيج والزعيق .

تدخل جـارتنا وتولول بزغرودة عـاليـة ، حين لمحتْ صفـوف الجند في

طوابير ، يمرون بعربة مكشوفة ، فيما جلابيبهم تكاد تفر من فوق أكتافهم . هممتُ بغلق فمها ، لولا أن تداركت بأنها جارتي ، والرسول الكريم (ﷺ) أوصى بالجار خيراً ، قفلت الفيديو فاحتجت جارتي :

- متخلينا انشوف قواتنا .

فتحته زوجتي ، فرأينا الأحفاد في حمية هزّ الأرداف والأكتاف . اختطفت نظرة متعجلة للجارة ، فألفيتها تدير وجهها للحائط . تدخل جارتنا الثانية :

- أووه ، سمعت الزغرودة ، فقلت إن أم (أيمن) صار عندها ولد .

ضحكتُ وأشرت للتليفزيون :

لا ، هي صار عندها أولاد .

فهمت جارتي ما أعنيه وتطوعت للرد :

- نعم أولادها فعلاً .

وعرفت أن رأس جارتي مرصوص بكلام التليفزيون .

تابعتُ بقية المشاهد ، فرأيت فيما يراه الصاحي صوراً مشدودة أمام الطوابير الطويلة ، أولها لواحد كثيراً ما سمعت التليفزيون ينسبه للنسب الشريف ، قبعته شبيهة بقبعة (شوشو) ، تضفي عليه نوعًا من السكينة والوقار مع أنه يقوم بأدوار مريبة ... لايزال غبارها عالق بصفاء سمائنا . ثانيها لواحد يبدو أن «السكرى» نال منه ... تتذكر به ملك الغابة مع أن بعضًا منه - العلامة الفارقة لعجزنا جميعًا - لايزال رهن «أبناء عمومتنا» .

أنهب الأرض هاربًا ممن كدت أركن إليهم لولا الاكتشاف والتيقظ ، ومن مدينة واسعة الشوارع ، وتتكئ على حواشيها ألواح الزنك والصفيح .

الولد يحاكيني وأنا أحاكي الولد المبهور بيافطات التعاقب (الآيس

كريم) ، (الكنتاكي) ، (الكوكاكولا) :

- ربي .. ربي لِمَ لا يكون جبلنا أحمر كجبل المارلبورو ؟

اختطف نظرة عجلى ليافطة يعنيها ، فأعرف أنها لجبل (كلورادو) . يختل توازن عربتي المهترئة ، تجنح عن الطريق ، تدور ثلاث دورات كاملة ، يطير رفرف عجلتها اليمنى في الهواء ، حتى أنني خشيت وقوعه فوقها . أمسح أهداب الولد المتعلق برقبتي ، أنفض الغبار عن ثيابه ، أستسهل المسألة وأتخيل أنني قادر على نفض جل غبار التراكمات ، (الشفرليت) ، (الميكي ماوس) ، (باور التكييف) ، (منتجات المارينز الصحراوية) . أسمع صوتًا بين القريب والبعيد :

- يا رجل ، كُفَّ عنا شرك .

- نعم ؟

ويخرج سائقه غاضبًا ليطوّح برفرف عجلتي تجاهي ، أنحني ، يمر فوقي كطائر خرافي عظيم .

- تمشي بخردة يا خردة ؟

أحسُ لحظتها بوقع مهانة كبرى ، أقترب منه ، أرى وجهي يتضخم في الليموزين بشكل جعلني أشك في أن يكون لي . ما أن أصله حتى يندفع باندفاعة شبيهة بسيارات السباق .

وفجأة يصرخ الولد بصراخ عجيب ، سادًا أنفه ، ظننت أن نزيفًا داهمه ، أسأله فلا يجيبني إلاّ باصطكاك قدميه ، محاولاً الإفلات بأي ثمن . بعد جهد جهيد ، أعرف أنه يريد عربة صغيرة ملونة ، كجاره حمدان . أتوجه للـ «سوبر ماركت» ، يلمحها في مكان بـ «فاترينة» العرض الداخلية ، يشدني إليها ، أتظاهر بعدم الرؤية ، لكن قوة جذبه تجبرني على التوقف :

- هذه سيارة صغيرة .

- أريدها ... أريدها .

ويجريها البائع بالجذب والإغراء ، على امتداد طاولة العرض . فتندلع مع ضوئها الأحمر (سرينة) شبيهة (بسرينة) الإسعاف :

- سأشتري لك واحدة منها .

- لا ، لا ، أبغي هذه بس .

ويدق الأرض بقدميه ، فيما يدق قلبي غيظًا ، على نجوم سيئة الذكر والسمعة تبعثرت على ظهر وجنبات لعبة اللعن والمقت . فجأة يهمد الصوت والضوء ... تتساقط النجوم في ثنايا الظلمة مأواها الوحيد عن قريب ... يعلو صراخ صغيري وشطط بائع الشر الهاتف ببزمة كأنه حمار مخنوق .

- ادفع ثمنها .

تملكتني نشوة النصر ، لكن موظفة خزينة التحصيل ، جعلتني أتمم بقية المواجهة :

- أتفوه .

الأيادي تلاحقني للشد ، فيما ولولتها لاتزال مشدودة للسماء ، أناور ، أقفز إليها ، أشد قميصها بخطفه كلمح البرق أو هي أسرع ، تتهاوى نجومه اليانكية ... دفعة واحدة ، تتناثر بالأرجاء ألمح صدأ قفاها .. أتراخى ، تتناهشني «السوبر ماركت» . تجرجرني لمكتب غير بعيد عن الأصابع ، ، فيما كنت مشدوداً لصراخ صغيري ، رفعت بصري للقابع وراء الطاولة ، كان وجهه مضروبًا بندبات سوداء صغيرة ، شعره خشن مليء بذرات تتجاوز وتتراصف في انتظام مهيب ، خطوطه على ورقة بملف أمامه بدت كما لو أنه متخرج من مدرسة لمحو الأمية :

- اسمك ؟

- مُصعب .

- لا ، أنت مُتعب .

ولا أرد عليه بشيء فيتابع : السكن ؟

- اسكن بالجانب الغربي لأكوام الصفيح .

- يا حمار خلصت كل شيء ..... وما بقى غير ربع الأصدقاء ؟

وأضحك فى قرارتي من ربع الأصدقاء ، فهل كانوا ولايزالوان ، بمضارب الخيام ، أمامها النوق البيض ، تزين (النشامة) وتنقل أثقالهم دون أن تئن ؟

- هه ، احكي يا ابن الـ ....

- أنا أقاوم الرمز وحده .

يبعثر نظراته بين الأرجاء ، يرتد للوراء في مقعده المتحرك :

- نادى ع الجماعة .

تذكرت باللفظة ذاتها دعوات شُلل قتل الوقت بالمجان ... في عادة عربية بكل الأطراف والأرجاء ... اصطفوا أمامه في طابور جانبي ، أتأمل نظراتهم المترقبة .. المتوجسة ، خُيِّل لي أنهم قادمون لتوِّهم من أطراف الصحراء ، وألبسوهم ملابس الضيق والحرج .

- شيلوا ولده للبيت ، و تولوا بقية الأمر .

يبحث عن شيء ما ، عيون جماعته مصوبة في انتباه :

- انصراف .

أدوا التحية وضربوا الأرض بخبطات لم يفلحوا في توحدها ، ولم أنشغل ببدء رحلتي ، لأني أعرف أنها جزء من تقربهم للنجوم زلفى ، فكيف السبيل لاقتلاع قناعات ترسخها ضرورات الكروش ... والجيوب ... ؟ ولا يهرب من فراغ يعيشه ، بل من مواجهة صامتة

تشاكس فيها العين القوية ، الأخرى المتداعية بالانكسار . ولم تمض دقيقة ، إلا وجاءني من جذبني من تلابيبي بجذبة أوقعتني أرضًا . ألاحق أنفاسي ، يركبونني عربة لم أرَ مثلها ، العجيب أن سائقها ، يناور لاجتياز حافلة عائدة بصبية المدارس ... مع أن التليفزيون يعلن ليل نهار ، أن الأولوية لأبنائنا ، عماد مستقبلنا الزاهر !!

في ممر معتم ، ألتمس الحائط وعيني المتورمة من لطمة سريعة بيدٍ بدت وكأنها جلد تمساح ، يقف مرافقي بوسط موطني الجديد ، فهل أكسبته خبرة الجرجرة مرانًا متقنًا وسط الظلام ؟ تفاديت حفراً ترابية ، تحسستها بقدمي ، أستدير بجذبة قوية من مرافقي الذي يبدو وسط الظلام وحشًا ضاريًا بالغ الضخامة .

- ليش تسب النجوم ؟
- لأنها معتمة .
- هي مضيئة .
- كل يراها بطريقته .
- للشوفْ شكل واحد يا بهيم .

وفجأة ينكفئ وجهي للوراء، أحس بنهر ساخن يتفرع على ذقني كفرعي دمياط ورشيد . أتحسس لزوجة التخثر القادم لتوّه من شعاب تكاد تميز من الغيظ. أعيد لوجهي استقامته، قطع من الحلوى، أو هكذا يبدو ، تلعب بفمي، أدحرجها بلساني ميمنة وميسرة، بدت حبات محفورة الوسط. أضغط عليها فأكتشف أني أضغط باللثة وحدها . تنتابني قشعريرة تنتهي بي إلى فقد الوعي، لم أعرف على وجه الدقة والتحديد مداه. حين أفيق على جلبتهم ألمح حبيباتي البيضاء المنثورة بلا انتظام. غير عابئ بمن بدا أنه آمر المعتقل، جسد مترهل يرفل في خيبات جهالته وعناده :

- يا بغل ، ليش ما بتحيي سيدك ؟

- سيدي الله .

أرد فيما أتطلع ثانية لأسناني المغادرة دون وداع ... يغيظه اهتمامي بهن أكثر منه . يمرر حذاءه الجلدي اللآمع عليهن ، تمنيت لو أنه بمقدوري أن أصفعه وليكن ما يكون . اقترابه مني جعلني أتأهب للمسألة . وفجأة ، يهوي على استه ، يرتفع ، في السقطة الثانية ، يتكوم المكتنز الشحمي المتكوم بتراكمات الشره والنهب ، تذهل المفاجأة مرافقه ولا يتحرك إلا عند تكومه متأوهًا . أحس بقرب من صديقاتي ... أنظم بعثرتها بالأرجاء، أشد عليهن واحدة واحدة ، وكيف أُسدي معروفًا لمن يتكفل عني بما لا يمكن أن يكون ؟ أم أن إسقاطه هين ؟

- مُعجب بذلك ؟

ولم أتكلم بشيء ، فيلزم سيده الصمت ، مداريًا هزيمته المنكرة .

- ستندم .

وأعرف أن سوءاتهم قادمة إليّ في كل الاحتمالات . فوق رأسي ، ثمّة حبل متين مثير للانتباه ، يتصل بحلقة ضخمة مثبتة بالحائط . أنتقل منه إلى الرقم (٣) أو لأساور معلقة بالسقف بدت أكثر جدّة من سابقتها ، المعلقة الرابعة ، مجرد قضيب معدني ، له انثناءة من جانب واحد ، أتحسسها فأكتشف بقايا براز يابس . الرقم الخامس ، يتصل بسوط بدت عليه دلالة القدم ، فأيقنت أنه لا ينتمي للعلامة الجديدة «شوارزكوف» وكان عليّ أن أسميه بتسمية ، تعطي ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . إلا أن مسألة الخيار بين اسم طويل ، وآخر مختصر للعائلة التي جلبته ، جعلتني أكتفي بـ (سوط العائلة) .

ويقطع عليَّ وقع خطوات قادمة بقية المتابعة ، يقف القادم بضخامة سوئه سادّاً مدخل زنزانتي ، وجهه كالح ، ونظراته لفرط شرهها وتعطشها للانتقام لا تستقر على شيء ، فيما تبدو شفتاه كبرطيل الكلب :

- أنت فيه نور !!!

أعرف من النغمة أنني أمام مرتزق آسيوي ، لم أعهد أمثاله إلاّ في جامعي القمامة .

- كيف أنت فيه نور ؟

ولم أرد على تتابعه ، أتظاهر بعَدِّ المعلقات الحائطية المُرقَّمة .

- أنا فيه كلام ، ليش أنت ما فيش كلام ؟

أتابع تشاغلي دون جواب ، يتقدم بيمناه خطوة واحدة يعقبها باليسرى فيصير فوق رأسي . ينقره بقفا إصبعه فأحس بالوقع كضربات مسمار ، أتحسس رأسي فيقبض على يدي ويجذبها بعنف ، أضطر للنهوض ، يعاجلني بصفعة تطيح بالشيطان ، أوزغ الدم ثانية من مواطن أسناني المخلوعة ، فيما يخطو للوراء قليلاً :

- لمَّا أنا فيه كلام ، لازم أنت فيه كلام ، مفهوم ؟

أتشاغل ببقية المنهمر كسيل عرم ، يصفق بضربات قليلة فيهرع إليه زبانية يتحلقون في صمت ، عيونهم تتطاير بشرر غريب . ثم يطل وجه قمحي ذو لحية كثَّة ، بدا أنه غير مكترث بالمكان وكأنه يتنكر له :

- أنت يا وجه النحس .

أمسح الدم بطرف قميصي ، يتتبع الأثر بنظرة خاطفة . أتشاغل كعادتي بأشياء زنزانتي :

- يا حمار ، سيدك بيتكلم ..

ولم أرد بشيء . فيتدخل أحدهم لستر حرج موقفهم :

- ليش بتزرع أسنان الحمار ؟

- أنا غير مسئول عن خلعها .

- ليه ما رميتها بعيداً ؟

- وأين البعيد عندكم ؟

يتقدم أحدهم ويدفعها تجاه نافذة صغيرة في آخر الحائط .

ترتد على سيدهم فيزمجر غاضبًا :

- اللعنة .

تحمر الوجوه ، تضطرب ، ثم أومأ بشيء ما وخرج بخطوات مضطربة . يتقدم اثنان ناحيتي ، يأمراني بالانحناء ، ينط أحدهم فوق ظهري ، يلكزني الآخر للثبات . أقفز من شدَّة اللكزة ، يسقط صاحبه فيمتزج دمه بدمي المسفوح .

يختلط الأنين بسباب لا ينقطع . تنهمر وقائع العصى الغليظة على بساط جلدتي بكل أرجائها . لكن ثمَّة صوت يزمجر بحدَّة وغلاظة :

- اتركوه ، لابد من الركوب .

يتجمد الدم بالوجوه المكفهرة ، تضطرب ، تتبادل نظرات التساؤل والحيرة ، يقفز أحدهم مدعيًا الشطارة ، يستسهل المسألة فيتمرن على الجري جيئة وذهابًا . أقوِّس ظهري ، كاد أن يسقط هو الآخر . تعاودني الأيادي بسيل من القبضات المنتهية إلى اللاّشيء :

- كالخنزير ، كلما تضربه ، يزيد عناده .

ويجذبني الحبل إلى حلقة الحائط ، تعانق يدى برودة الحديد ، فأى وصل يوحِّد بين كتلة الصلادة ولحم ميت ؟

- مافيش من مفر بعد هالحين .

- أنا أعيش بشباني .

- يا وجه النحس .

وأدفن وجهي في صدري فرحًا رغم كـدمات الضرب ، فأي شيء أكبر من الاتكاء على هشـاشـة لم أتوقـعـهـا ، ثم دخل جلف ، طويل القـامـة ، عريض المنكبين ، أسنانه بها بقية من قوم عاد :

- أي بالله شاطر .

ودفنت نظري بالحفر ، فتابع بعد برهة قصيرة :

- اسمك ؟

- ....

- يا كلب الكلاب ، أنا أسألك .

- وأنا أعرف أنك تملك الجواب .

- ليش بتدفع الرِّجَّالْ للسقوط ؟

- أنا لم أسقط أحداً .

- بغل ابن بغل .

ولا بعد الفعل إلاَّ غيظ دفين . فكيف تستقيم الأمور وتلبس حلة التوافق والتوحد التام ؟

- ليش بتدفع الأفندي للسقوط ؟

(سكتُّ ، خُيِّلَ له أنني نفيت الأمر ، فتابع) :

- كذاب .

أرفع عـيني بوجهـه المشـعث فلا يـقوى على مـواجـهتي ، ظلَّ يجـوب أطراف زنزانتي ، وعيونه لا تفارق حفرها . ثم أومأ لزبانيته بعلامة يفهمونها جيداً . يحرك الآسيوي شاربه مزمجراً :

- أنت ديمه مافيش كلام . أنت لازم فيه كلام .

وأضحك ثانيـة من شدّة التواء الكلام . ومن زهو مـرتزقة صاروا حـماة

الوطن الموغل في شساعة تيبسه .

- طيب ليه أنت فيه كثير اتفوه ؟

- سأزيد منها .

- أنت فيه زيادة اتفوه ؟

- نعم .

- أووه ...

وأبصق ما جمعته من بصاق قليل ، فيعاجلني بما يعتقد أنه شفاؤه الوحيد ، مضيفًا من السباب أقذعه :

- كلب ابن كلب .

- بل أنت الكلب .

يتملكه الغضب ثانية ، يرتد إلى الحائط ، ويندفع تجاهي كثور هائج ، أنزوي عنه في اللحظة الأخيرة . يكيدون كيداً وأكيد كيداً ، ولا صوت للدوي إلاً صوت وحيد .. أعقبه بقهقهة عالية رغم كل الجراح ، تهوج الأصوات المكسورة ... أو المنتظرة لانكسارها ... تختلط ، تنتشر بالأرجاء، تتستر بحيطان لا تنتسب إلاً إليها . يرفعونه ممداً ووجه ممتقع بالسواد :

- ميرزا ... ميرزا .

ولا حياة لمن تنادي .

- اللعنة ، زنزانة منحوسة .

- لا ، هو اللي منحوس وحده .

- غريبة ، رأسه أثقل من باقي جسده !!

وأكتم ضحكة كادت تفلت مني ، يمددون الجسد بزاوية زنزانتي ، تتهافت الوجوه على مهام مضطربة . بعضها يجلب الماء ، بعضها يحرك الأطراف ، بعضها يجس النبض .

- الماء مقطوع هالأيام .

- والمعتقلون ؟

- انجيبلهم من مية ترميم الزنازين .

ويذيقونه من ذات الكأس . يفتح عينيه ، ينفض وجهه ، يزمجر بغلاظة:

- بتظنون أني مش فايق ؟

- كنا خائفين عليك .

وأشاروا عليه بنظرة فهمتُ بُعدها القريب ... ينهض بتثاقل ، يتجه نحوي مترنحًا ، يشد شعره فيما تلعب أصابعه الأخرى بالوعيد :

- سترى .

وأعرف أنه يجيد مختصر الكلام . ولكن ما الذي لم أره بعد ؟

تتوالى انتصاراتي ، يرقص داخلي طربًا ، أنشد في همس بين المسموع والمكبوت أناشيد التمني ... ألحقها بغناء مُلحّن مسموع ... راقصًا على شد الحلقة :

النجـــومْ النجـــومْ اللعنة على النجـــومْ
النجـــومْ النجـــوم تبًّا تبًّا للنجـــومْ
النجـــومْ النجـــومْ اللعنة على النجـــومْ

يهرع الزبانية إليَّ ، تحتشد حشودهم بالمدخل ، أُكثِّف قفزاتي المنشدة ، ترتد الوجوه للوراء :

- يا حمير ، تسمعون ناشيداتهْ وبتتحايلونْ على المواجهة ! !

لأول مرة أحس بتنامي خوفهم ، ظننت أنه محصور في عدد منهم . فإذا به يهيمن على قلوب الجميع .

ويمر يوم بأكمله ، أنام على يقظتي . أصنع الحوارات المفتوحة مع جمع

من الناس من كل لون وصـوب . وكأنني داعـية جـديد للإصلاح أسـتمـد دعـوتي من مـارتـين لوثر ... أو غـيـره من مُـصلحـي الحـال والأحــوال . وأعــرف أنني كـمن ينفـخ في وجــه الريح ... ومع ذلك أركب الـزهـو والمشـاغبـة . في اليـوم التالي ، قـدم إليَّ الآسيـوي وعيـونه حمـراء ككلب مسعــور .

- كده ؟

رمقـته بنظرة خـاطفة يستطلع مـسافـة خدعتي التي انطلقت عـليه لحظة اندفاعه ، تحسس يدي المربوطتين للحلقة وتحول لمؤخرتي :

وأتململ بغيظ ، جمَّد أطرافه ثم تفوه بكلمات مبعثرة :

- هه أنت بتأكل لحم كثير .

يصفق ثلاث مرات ، فيهرع زبانيـته على عجل ، يهمس لأحدهم بشيء ما . ينتصب السلم بوسط الزنزانة ، تلاحق يد الإثم حلـقة السقف ، تصلها بحبل غليظ ، خفّة التمرير ، جعلتني أدرك الباع الطويـل في الشد والرفع .

وأحسـست في تدافع البقيـة المتبقيـة ، بقرب مناوءتي . فهم يتـمسكون بشـرعية غـير مـشروعـة ، يتوارثون بهـا المقعـد وحدهـم . فـيمـا نلوذ نحن بالتعري وقبض الخواء والفقر المدقع .

وتتوالى عليَّ خيالات صورهم : (تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى) . فهذا من آل ... بطابور أتباعه الطويل ، يتباهى على نظرائه بقوة العدد والعدة .

وهذا من آل ... بزبانيته المشدودين بخيوط يظنونها أقوى من غيرها ...

فكوا قـيدي الأول ، شـدوا قدمي بطرف الحـبل دون أن ينبـسوا بجـملة واحدة ، جذبوا طرفه الآخر . أحس بقدمي تنداح عن ثباتها ، أفقد توازني ، تنجذب في اللحظـة ذاتها قدمي الثانـية ، أهم بالسقـوط على وجهي ، تطبع

أصابعي آثارها المشهودة ، المتحولة لتشكيل سريالي يأخذني إليه بالمدى .
أصعد للسماء مقلوبًا .. خرخرة بصدورهم المنخورة ، ولهاث ألسنتهم ككلاب ضربها الحر ، تلامس قدمي برودة حلقة السقف .

يهبطونني ، تتقزم وجوههم رغم الاقتراب ... يرفعونني ثانية وقهقهات الخبث تتدافع ثم تنكفئ عليهم في هواء الجذب والارتخاء ، ثمّة كلمات مزروعة بنضجها المتيقظ بين جنبات فقراء أطراف البيداء ، ووسطها المقفر إلاّ من الصبر والثبات :

يا حبال الشدِّ شدي كل حصاد السنينْ
هم شد نحن عَدْوٌ بشهادات السنينْ
هم خلب نحن ملءُ رغمَ زعيق الطنينْ

- يا بغل البغال ، تثرثر كعجوز مش كفاية م للي أنت فيه ؟
ويحسب أنني أقترب من نهايتي ، فكيف لا يدرك أن كل بادرة جديدة زاد جديد ؟

أضرب الهواء بيدي ، ألف لفة كاملة الاستدارة ، أقترب في إيابي من أيديهم ، ترتعش كما لو أنها تخط بمداد سوءاتها حروف البلاغات الباهتة ... نعالهم السوداء صارت بيضاء كأنها مغمورة في جير مطفأ .
وما فازوا في أي سباق ... تجرعوا كئوسًا مَلَئوها لغيرهم .
- هه ليش السب ؟
يسألني الوجه القمحي فيما يعدل دشداشته :
- لأنني رأس على عقب .
وترتفع الأحذية الثقيلة المهترئة إلى رأسي :
- يا تيس التيوس ، تسبُّنا في وجوهنا ؟

- طافْ .

وتعـودني بادرة البـدء الأول ... والأخيـر ... ولم ينزف رأسي قليـلاً ، أتأوه ، أستغيث فلا مجيـب إلاَّ دوي العصى وحفيف ريحها يغلفنـي بوجع لا ينتهي . تدور الحفر تحتي ... ترتمي شظايا العصى المفتتـة بحواف الحفر أو ببطنها ، أغيب زمنـًا لا أعـرف تقديـره ، أعود متحسسـًا شفتي ، أتذوق ما يشبه الملح ... تغـوص يدي في لدونة الطلل البنطلوني :

- أنت مافيش كلام مفيش فائـدة ... أنـت لازم فيه كلام ، علشان أنت فيه فائـدة.

يتطوع الآسيوي من تلقـاء نفسـه وكأنه حريـص على الوجوه الحـمراء اللقيطة ، النافـثة لغبار «المارلبورو» ، الملوث لـطبيعتنا النقيـة ، كقلوب أهلنا الطيبين . ويبدو أن صاحب «الدشداشة» ملَّ انتظار الجواب .

ألعب وأنا مُعلّق بالهواء ، أضرب بيدي ، أتأرجح من الحافة إلى الحافة ، أفـتش الحفـر ببـصري ، عن أي واحـدة مخـتبئـة من صديقـاتي البـيضـاء المنزوعات من لثـتي الثكلى ، تستهويني اللعـبة ، أُكثّف فعلهـا ... يغتاظون من الاستهواء ، فهل قدموا بي للترفيه والتسلية ؟

- يا خراتيت ، أنزلوه هالحين .

وأهبط لتـشكيل شـكلتـه أصـابعي قـبيـل لحظة الارتفـاع ، يعـبث نعل «الدشداشة» بالـلوحة ... ويصير عدواً للشـكيل ليضيف بتراكـمات منعه ، وسوءات التعامل ... ما يظن أنه رصيد في سجل تفانيه لليانكيين .

- اسمك ؟

- كل العصى تكسرت ! !

- يا حمار ، أنا أسألْ عن اسمك .

ابتسم ، يزمجر غاضبًا مع شدّ شحمة أذني :

- أنت بتسخر مني ؟

- إنزالك لي جعلني أُغيّر الكلمات !!

يرفس قدمي ، فلا أتحرك عن مكاني ، يُمعن في الضغطة فلا أزيد إلاَّ ثباتًا :

- اللعنة .

تذهله المسألة ... يحس أنه أجرم في حق تحصيله ، فيما لو قدر لمرءوسيه معرفة إسدائه صنيعًا جميلاً لي ، فيما سبق .

- تتبعنا لك ، قبضنا عليك ، علشان سبَّك النجوم بالعلم الأمري ...

- هل كانت قادمة لسواد عيوننا ؟

ويذهله السؤال ، إذ لا يعرف من المسألة ، إلاَّ توجيهًا لا يحيد عنه ولو كان صديقًا للشيطان . يرفض التدوين ... يتملكه الغيظ والحنق ... يصير هو الأسير القابع في زنزانة حيرته ، يبدو أنه لم يمر عليه أسير حيِّره وهدده في مصيره مثلي . أزحف من شدّة وجع (بطن) القدمين على ركبتي . أتفادى الحفر ميمنة وميسرة ، أهز رأسي كقرد يمشي الخيلاء والزهو ، أدعك ذقني دعكات خفيفة ، أجلس بالطريقة ذاتها على حفرة صغيرة الاستدارة ، تطل عليَّ وجوه جديدة تتشابه في زيها وحجمها ، أهرش ظهري بأظافري ... ينفجر صوت التحصيل تحتي ، أكوِّم الخير جانبًا ، أحصيه ، أتلذّذ بالالتهام ، أكشط آخر حبة فيه ، فيما تتعفف الوجوه وتستدير للحائط . أفتح مجرى النهر ، أسكب جرعات في جوف القهر ربما تكون مماثلة للقم التحصيل وربما أزيد بقليل ، أنط ببهلوانية إلى بعيد ، يفيق كبير القادمين من ذهوله وتعففه :

- احتشم يا ملعون .

أحس في صوته بارتقاء صياغة السؤال ، أدور على أربع بين الحفر ،

أقبض شظية من شظايا عصيهم المكسورة على بطن قدمي ، أقضمها بذات الحركة المتعجلة ... جالسًا على استي . يقترب مني صاحب الدشداشة ... في حذر ، أعود للدوران ، يقفز فوق حدبتي ، القهقهات بالأرجاء ، وأنا تحت وطأة تراكمت عظامها من عوائد ذهب يقول التليفزيون أنه أسود .

أتذكر لون أسمالي ، حين كنت أُهبط مع أبي قدور طبيخ المقاولين ، سمعت مرة أنهم يعملون في شركات يمتلكها الأمراء .

وفجأة ، أسمع ارتطامًا صنعته ، ألتفت إلى الرؤية فلا أرى إلاَّ غبار إسقاطه . أقترب رغم حجب الرؤيا ، ألمح بصعوبة أطرافه تتخبط في ذهولها ، تتجمد كتل مرافقيه . تلتصق بالحائط ... ثم تهرع إليه ، تمتد الأيدي ناشدة النجاة . يتعلق بها ، يضع قدمه على حافة الحفرة ، تتخلى عنه بانهيارها ، ينكفئ ثانية بالقاع ، تتباعد عنه الوجوه المرافقة ... ثم تعاوده بتوجس متكاثفة هذه المرة في سحبه من وسطها . فيما بعضهم ينهال عليَّ بالركل والرفس بدوي مضطرب الإيقاع . حين عجز عن النهوض ، هرعوا جميعًا بطرحه فوق تشابك أيديهم ونقلوه على عجل . أنهض فأسمع أحدهم يردد لأصحابه :

- هالمعتوه ، نحس .

وأفرح لرفعة التفكير وسموه ، إذ لا يصل لتفكير كهذا إلاَّ عقلٌ لن يتزعزع عن توبته !!

عند عودتهم لي في هيئة متكاملة الأركان ، اصطفوا بحائط زنزانتي ، عرفت كل من تردد عليَّ ، بعضهم يتململ في وقفته وكأنه يتمنى لو بمقدوره أن يتدخل بالحائط ، يرتفع من بينهم صوت غريب عليَّ ، يبدو أنه مُكلَّف بشيء ما :

- هالمعتقل خطير وبنعلمه قبالتكم إنو إن ما تعاون معنا حيموت .

وأضحك غير عابئ بوجوههم الكالحة الموسومة بتذمرهم وغيظهم ، يرفع أحدهم يده فتلتفت الوجوه إليه :

- الغريب إنو متذمر من أصحابنا مش فاهم أفضالهم ! !

وأعرف أن حروف التلقين عادة ما تسقط دون أي صدى ... يتابع آخر :

- معقول يا جماعة حتى هالحين ، الرجل مش عارف كل الأفضال اللي جتنا من ربع الأصدقاء ؟

يتدخل ثالث سُخِّر للتأديب .

- كيف هو مش عارف ؟ هو نفر مثقف .

ولا أرد على قِرب تتحرك بخوائها وطمعها فيفشل مستهدف التلقين ... والتطويع ... الذي سوّلَته لهم خيالات التمني .

***

ميشلان العظمة... أو العظمة ميشلان...

بعد شهور من الشد والتراخي ... يقودونني لعربة بها صورة لرجل بدين يشبه ((الميشلان)) ، الماركة الشهيرة لإطار السيارة ، صورته لم تفارقني منذ زمن غير بعيد ، التلفزيون يُشيد به كفاتح السند ، جمع من أصحاب القمصان البيضاء الطويلة ، يجرون في الشوارع رافعين الصورة ضمًا وتقبيلاً ! ! لاحظت آثار محاولة للنزع حيث بدا مشطوراً إلى شطرين. لمحت عبر النافذة نساء يجبن الأطراف ، فيما قامات هزيلة .. خاوية تتقرفص قبالة بيوت الطين ، المطلة على شارع ترابي مغبر ، وأولاد المدارس يسيرون بأحذية مهترئة ، وقمصان بدا رتقها ظاهراً للعيان ، نقترب من سور عظيم ، سياجه متشابك يطل على أطراف البيداء . أتذكر سور الصين العظيم ... الرمز الكبير للاستعداد والمثابرة ... وسور برلين المندثر مع عقلية الشطر والمنع ، لأمة ستصير قوة مهابة شمال المتوسط الوديع ... ونتوقف ببوابة كبيرة الارتفاع ، تحيط بنا وجوه وجلة حائرة ، بدتْ قسماتها تشي بقدومها من قلب البيداء ، فطرتها الأولى حُوّرت لقسوة لا تعرف اللين ... لاحظت أن أحدهم يبادر بسؤال مرافقي عن جهة القدوم ، تعجبت حين أجاب بأننا قادمون من المحكمة الجنائية . كدت أن أقول أنني لم أمر على القضاء أبداً ، بدا السائل يرصد في نوتة صغيرة كل ما يتعلق بي ، تمامًا كما يرصدون بحظائر الأبقار ، أي ثور قادم للقطيع . ألمح مجموعة من الطلاسم والرموز على لوحات كبيرة مثبتة بإحكام . تلف بنا العربة على

أكثر من مكـان ، فهل كانوا يختارون لي أفضل الأماكن ؟

تتوقف بنا عند يافطة يعرفها كبيته .

ما أن هبـطت حتى أحاط بـي اثنان يحمـلان بندقيـتين آليتين ، أحـدهما يسير على قفاه ووجهه لي ، والآخر يسير ورائي ، حين أصير بمطلع العتب ، ألمح معـتقلاً مقـيداً إلى شرطي ، وآخر يخـضع لهجمات كـلاب الشرطة ، وثالث يركع على ركبة واحدة ، ويداه ملتصـقة خلف عنقه . في مطلع الممر الثـاني ، تطالعني صـورة كبـيـرة لولي الأمـر الأول ... وأضحك من شـدة العجب ، حين ألمح راية الوطن وراءه ، وإلى جوارها راية مـرصعة بالنجوم والألوان الزرقـاء والحـمـراء . ولم أعـرف أي سر أو دلالة للصـورة بهـذه الكيفية ، أتذكر بالصورة بيـتًا شهـيراً :

«رأيتك هرّيتَ[1] العمامة بعدما عمرت زمانًا حاسراً لم تعمم»

أتوقف عن المسير ، يلكزني مرافقي القادم بي :

- يا ولد الكلب .

- وأنت أبى .

يبـدو أن لهم كـشـافـة هائلة من المجـندين ، وإلاّ لما خـصـصـوا لي اثنين لحراستي . يتـوقف الركـب الميمون بصالة واسـعة الأرجاء مقاعـدها عظيمة التكبـير لكلب من الكلاب البـوليسيـة . وفـجـأة ، ينفرج البـاب المـقابـل ، يطل علينا وجـه عريض ، آمـراً بالتـقدم . أطل على قـاعة أخـرى بوسطهـا تقـبع صـورة مكبـرة لولـي الأمر رافـعًا يـده ضـاحكـًا ، هذه المرة لا أدري فـيـما إذا كـان يـضحـك عـلينـا ... أم أنـه سـمـع نكـتـة خـفـيفــة بلكنـة مقطوفـة مـشدودة للاختصار كـما هي عادة أصحابه اليـانكيين الخلصاء ...

---

(١) هريت : اسم مكان تنسب له العمامة .

المبهورين بهيمنتهم وعربدتهم . يطل عليَّ وجه آخر قصير ، يُذكرني بجملة مأثورة :

((أقربكم إلى الأرض أكثركم فتنة)) !! ينهر الجنديين فينكمشان في قامتهما المديدة تجاه باب الخروج . يلتفت لمرافقي ، يستلم منه - فيما يبدو - ملفي . ثم يخرج المرافق في صمت مطبق .

أفلتُ عيني بآخر المدى ، تتكسر نظرتهُ الحادة :

- وأنت يا وسخ ؟

يرفع بنطلونه إلى بطنه محركًا قدميه :

- شاطر في السب هه !!

ولم أتكلم بشيء ، هرش ظهره ، ثم دمدم بحدةٍ :

- عمومًا حركاتك الأولى مش حتفوت عليَّ .

لوحدي أرفل في قيدي ، وأحلامي المتضاربة . وفجأة تهل عليَّ واحدة ممشوقة القوام ، اعتقدت لثوانٍ عدّة ، أنها جزء من تكوينات أحلامي المعتادة ، لكن صوتها يشي بما عندها :

- هاللو .

- ....

- أووه ...... أنت مافيش هاللو سوا سوا أنا ؟

أرتد للوراء ، تتبعني بدلال ، فهل صار للسجناء أمثالي اعتبار عاطفي في (دولة الإيمان والتوحيد ؟) أم أن فى المسألة اعتبارات أخرى تحتم كل شيء ؟

تمد يدها لي ، تشهق بغرابة متصنعة ، تغيب برهة ثم تعود حاملة مفتاح فك قيدي ، تمد يدها فوق يدي ، بتمريرات ناعمة ندية ، أحس

فيهـا بسطـوة غريبة تنتـابني ... وهاهي سطوة العمر بعمق العمق ... كنت أظنها مقصورة على منتجعات الاصطياف وقصور اللذة :

- أنت خبيبي .

- نعم ؟

- أنت خبيبي .

في قطف الحروف ، تماثل غريب مع لكنة سمعتها بشريط مرئي وثائقي، لطيار يخاطب وحدته عند تجرؤه بضرب ثلاثة أهداف أخرى جنوبي بغداد، دون إذن من قاعدة انطلاقه .

- أ أنتِ من ...

ويثقل عليَّ اسم بلدها سيء الذكر والسمعة ، إذ لا شيء مشرّف يؤهل لساني بذكر اسمها اليانكي طواعية كما هو الحال مع أي دولة أخرى.

- أنا من هولندا .

وأعرف أنهـا تقفـز فوق الكلمات ... وأن ذاكـرتها تخـونها هذه المرة . يعاودني الخـيال ببقـية الصورة المقطوفـة من الشريط الوثائقي ، غبـار أسود يصعد للسـماء ، مضيفًا لليل حلـكة إضافية ، نيازك حمـراء تهبط بشراهة ، صبية ينتهون بالذوبان في سكون أبدي مهيب بملجأ العامرية الشهيد .

- وين تفكر خبيـبي ؟ أنـا مثلك لا أخـب الأمريكا ، هي فيه كـثير ... بُـمْ ..... بُمْ ..... بُمْ .

- وكيف عرفتِ أني لا أحبها ؟

يتـبدل وجهـها ، تـخونهـا شطارتها في بدء اللعـبة ، تهـمهم بكلـمات مضطربة ، باحثة عن مخرج من حرج الموقف .

- خبيبي ، أنا ليس لي صاحب . وأريدك صاحبًا لي .

- أنت فيه قلب جريح ؟

وتنفلت منها ضحكـة تعويضية ، يتردد صداهـا بقاعة خلت إلاَّ منا . في هنيهة التردد ، حسـبت أني أسمع استغاثة معتقل ، أتحـفز في وقفتي ، فتظن أنني أميل للرقص ، تشدني إليها ، أطاوعها بإيقاعات الشذا ، محدثًا بطرقي الفلكلوري ، طرقًـا شبـيهًـا بوقع دبكة لبنانية آسـرة . أنسى كل مخـاوفي ، وأصير حاضراً بحضورها ، أمد يدي تحت إبطهـا ، فيما الثانية تلتحم بيدها في الفضاء وكأنهـا تخاطب جزيئاته بلغة النهم المثلى . أمـاثلها في إيقاعات البطء ، فيـزداد وهج التأجج .. أعبـر عبرهـا كل الأرجاء ، ولا أتوقف عند انفـراج ضلفتـيْ الباب عن واحـد يبـدو أنه قادم باندفـاع قـوي ، لكنه يقف مبـهوتًا أمامٍ ما يرى . بدا متـردداً في تقدمـه وتأخره ، إلى أن جاء وجه غـير مألوف لديّ ودفع الأول عن طريقه وزمجر في وجهها :

- غريبة ، بدل أن تطوعيه يطوعك ، أنت متهمة بالتقصير .

ثم يجـذبهـا بقـوة للـخـارج . ولم تمض برهة حـتى قـدم إليّ غـاضـبًـا وجرجرني إلى مكتب مجاور :

- اسمك ؟

ولـم أرد عليه ، فيلتقطه من ملف يحمله :

- عمرك ؟

- ثلاثة أشهر .

- يا كلب ، الكلاب المرواغة لن تنفعك .

- أ أنتم تحسبون عمري بالسجن أم خارجه ؟

- إقامتك ؟

- في مُنجز حكومتنا .

ويصفعني بقسوة مزهواً ربما لأنـها واحدة من أنجح صفعاته ، وربما لملء نهم طال مداه ، أرتدُ للوراء ممسكًا بخدي المضروب :

- بتسخر منا يا حمار ؟

- التليفزيون يقول إنجازات الحكومة كثيرة ، لا نظير لها في الدنيا !!

- جريمتك ؟

وأبتسم ، مُدمداً :

- الجواب عندكم .

- عندنا ؟

- لِمَ تقبضون عليَّ إذاً ؟

يفتح سجله الكبير ، ألمح به ملفّا أحمر ، يدور بمقعده الوثير استدارة كاملة ، أقرأ في وقفتي تفاصيل الأشياء ، خوفه ... والآلاف من قاطني العربية ، بعضهم حظى بالحشرجة الأخيرة ، فيما بعضهم لايزال يرفل في أغلاله دون رحمة . ثم يقودني أمامه غارزاً عصاته بين أكتافي مرة ، وبين ردفي مرات كثيرة . أطل على باحة واسعة الأرجاء ، تطل عليها أبواب ضيقة ظننتها محلات تجارية ، صُفت لتكدس بضائع استهلاكية مجلوبة من وراء البحر ، جلنا يرى فيها نعمة ورخاء ، مع أن البسطاء لا يقدرون ولو على مجرد الاقتراب منها . أعد الخطى على مربعات أسفلتية كبيرة ، تقودني لمدخل عنقه ينثني بباطن الأرض ، أتردد في الدخول ، لكن لكزات مسرعة تجبرني على المسير في الظلمة ، أتحسس الحائط ، ألمح أشباحًا تتحرك في صمت مطبق ، خُيِّل لي أنني سأصطدم بها ، فيكون بذلك مفتتح مهمتهم المنتظرة . فجأة يزمجر مرافقي آمراً بتوقفي ، وهل كان التوقف جديداً عليهم ؟ وهم لا يعرفون إلاّ سيرته الطويلة بعمر نوح !!

الهواء ندى مُحمّل برائحة زنخة ، أسد أنفي فيتلقف مرافقي يدي . تعجبت كيف أمكنه رؤيتي ، يدفعني بوسط منحدر أو مجرى بدا لي أنه من

الحديد المصقول . أترنح ، أسقط على استي ، أتزحلق بالمنحدر وأقدامي ممدودة أمامي ... تُصفِّر الريح بدوي انطلاقي وسط العتمة . جلدة وجهي تكاد تنسلخ ، يعاودني اللعب مع صبية الحيّ معصوب العينين ، أفتش بيدي عن ولد اختطف قبعتي .

وهاأنذا أفتش عن الولد بعينين مفتوحتين ولا أراه ، فكيف ياربي تصنع حكومتنا الألعاب المسلية لشعبها بالمجان ؟ وفجأة أغطس في الماء ، ببرودة قاسية من كتل ثلجية منثورة ، أحاول تبيُّن مساحة المكان فلا أقدر ، يصطدم رأسي بسقف الممر لحظة محاولة الاعتدال ، تتجمد أطرافي ، تصير كتلاً باردة حتى أنني لم أفرق بينها وبين كتل الثلج !!

بعد زمن لا أدري فيما إذا كان قصيراً أم طويلاً ، أُدفع عبر منزلق شبيه بالسابق ، صحبة كتل ثلجية صلدة ... ثم أسمع فحيحًا قريبًا من فحيح الكوبرا لحظة التقاء الماء البارد بالساخن في حوض صناعي لا يختلف فيما يبدو عن الأول . وأتذكر بالماء البارد «حزبًا دستورياً» ... يقتطع لرجالاته المقاطعات البحرية من مياه الدولة الإقليمية ، متوصلاً بذلك لاختراع عجيب في ترسيم حدود المقاطعات ، وأتذكر بالماء الساخن الجغرافي الأول «جاليليو» الذي أصر بنواجذه ، رغم سكب الماء الساخن عليه ، على دوران الأرض ، مقدمًا نفسه فداءً للحقيقة وحدها . وأحس بتنمل أطرافي المغمورة بالماء ، فشكراً لمن يطردون شبح البكتريا بالتعقيم . ثم أدفع في انسياب رفقة الماء بمزيجه البارد والساخن ، والذي لا يلبث أن يغادرني بسقوطه عبر فتحات بذات المنحدر . فأي تقنية عالية تحظى بها أقبية لم نحلم بها مجرد الحلم !! وأجدني منتهيًا بممر أرضي ، أسير عبره محدودبًا ، أستمع في بدايته لأنين بدا صاحبه وكأنه مغمور في بئر معطلة . في أول لفَّة من لفاته العديدة أسمع صراخًا حاداً . في الثانية ، أسمع صوتًا

لم أقدر تبيُّنه على وجه الدقة والتحديد ، هل هو زئير أسد أو زمجرة لفرس النهر . في اللغة الثالثة ، تختلط الأصوات وكأنها في معمل للتحليل السمعي شدَّني من بينها صوت رقيق عذب الترخيم ، وإن كان بكاء ... خُيّل لي أنني على معرفة بالصوت ، تتباطأ خطواتي ، أنبطح ملتقطًا التفاصيل ، تجلدني عصى مرافقي ، أنشب أظافر تشبثي الكبير بالتراب ، أنهض ناشبًا أظافري بلدونة أبحث عنها منذ زمن بعيد ، ينفجر دمه ساخنًا من البروز الغض تحت عينيه .

يرتد للوراء ، يندفع في نطحة يود أن تكون مدوية بالأرجاء . ولم يخب أمله ، يترنح ثم يسقط بجوار حائط الصد !! أترنح أنا الآخر من ضربة بدت كالصاعقة . تتلقفني قبيل السقوط سواعد استطعت أن أتحسس صلابتها ، لحظة لعبها بي ككرة مكتملة النفخ والتدوير ... ثم أغيب إلى بعيد ...



حكي صادق... حكي غير صادق

الزنزانة انفرادية ، وأنا أستدير بصعوبة بالغة ، أتأمل سقفها، ثقوب سوداء متباينة الاستدارة كأنها مواطن لدبابير طائرة لا تعرف الاستقرار ، بجدرانها ثمَّة رسوم متداخلة ، بعضها بالفحم ، بعضها الآخر بالطباشير . جداريات تفضي بقراءة القراءة ... في كل مرة أكتشف إضافة جديدة تتبعت خطًا من الخطوط ، تشكيله يتذبذب بين الرفيع والسميك ... تعرجاته ودوائره تتخذ انحناءاتها أشكالاً هي أقرب للضيق من الاتساع ... ثم ألمح ذيلاً رفيعًا ينخفض ويرتفع كإصبع اعتدته يدعوني للقدوم ... ألمح الحركة ذاتها في زاوية أخرى . يقترب الذيل الأول مني باندفاع رهيب ، فيما يظل الثاني يمارس لعبته ، ربما فرحًا ، وربما للبدء في لعبة لا يعرف سرها الكامن فيها ، إلاّ العقرب إذ أن في أجزاء أخرى غير أجزائنا ، ثمَّة حكي محكي لا نفقهه ، ولم ترفع علينا حجبه الإلهية . يدور الذيل بقربي من اتجاه إلى اتجاه ، لحظة محاذاة أذني ، ينحرف قليلاً عنها ، يلتحق به صاحبه بذات الوقع والدبيب . ولا أخاف من عقارب تعودتْ على نزلاء القهر ، بل ووطدتْ معهم صحبة لا تنسى ، بقدر ما بت خائفًا من زمن صار يهدر بالمجان في دوائرنا ، واسعة الحيلة على مواطن مسكين مثلي . ذات مرة ، أعطيت دفتر عائلتي لموظف تسجيل المواليد ، فتح سجلاً كبيراً وبدأ في البحث عن صفحة التسجيل في اللحظة ذاتها ، جاءه صديق فوضع السجل جانبًا وذهب معه للزاوية القصوى لتجاذب أطراف

التسلية . حين كلمت موظفًا ثانيًا بادر بالرصد ، لكنه انشغل هو الآخر بصديق له ، تاركًا أوراقي جانبًا ، أشار عليَّ الأول بالعودة بعد ربع ساعة .

بعد انقضاء المدة ، كلمته فزمجر في وجهي غاضبًا :

- طيب ، صبر بالك يا أخي ، هو أنت ستصعد للقمر ؟

يذهل سجاني ويقف مذهولاً :

- غريبة ، إيش سويت للعقارب ؟

- أنا لم أفعل شيئًا .

يهز رأسه في تخابث :

- مش عارف إيش يجري هنا ؟

سألته عن المرحاض فهز أكتافه ، أضرب بالباب بقدمي. فيضربني بصفعتين متتاليتين ، مزمجراً بالبذاءة ... ثم جرجرني لمرحاض بنهاية الممر .

تفاديت في مطلعه كتل الفضلات الطافحة والغائصة ، لآخرين أمثالي، حين اكتشفت أن الماء يستوي مع فوهة المرحاض ، فأفرغ حمولتي كيفما اتفق . في طريق العودة ، التقطت من الممر في غفلة من سجّاني ، علبة سجائر فارغة . سحبت قلمًا احتفظت به في سرية تامة . شطرت العلبة شطرين ، سطرت بوجه منها كلمات تتفق مع لحن وكلمات سمعتها مرة من مساجين بالأرض المغتصبة :

يا ظلام الظلم ميلْ	إننا نهوى الظلامْ
بالظلم عزم الرجالْ	يصبح أقوى من الجبالْ
بالظلم عزم الرجالْ	يصبح في حد الكمالْ
يا ظلام الظلم ميلْ	إننا نهوى الظلامْ
يا ظالم الناس ظلماً	عُدَّ أيام القدومْ
لنا منها يوم ثأرٍ	لو ترقى حدَّ النجومْ

- يا حمار ، أغلق خراك .

أعيد عليه وقع جملته فيزمجر حانقًا :

- أترد عليّ يا بغل .

وألمح بيسراه وريقات بدت أنها مسودة تقرير يعد على عجل . يصمت برهة ، ثم يحذرني قبيل انسحابه من مواجهتي :

- لو سمعت أي صوت ، راح أقفل «خراك» .

وما أسهل اللجم ... وما أصعب الفتح ... أتكئ على حائط يئن السماع ... أغيب بذاكرة عاندت فيها عبثًا لا تقدر عليه إلاّ أكتاف البسطاء أمثالي ... ليوم فوزي بترتيب أول ، في مسابقة دولية للتشكيل الضوئي بباريس ، في قاعة كبرى من ثلاثة أدوار ، عرفت أن الناس بهذا البلد تحب الاختصار، تكتفي بلب الأشياء ، ولا تلتفت للزوائد والهوامش كما هي عادتنا ... قبيل بدء عرض اللقطات الفائزة بالمراتب المتقدمة ، يتقدم رئيس لجنة التقييم من منصة الخطابة ، يجول بعينيه وسط خضم بشري مهول ، وكأنه يبحث عن شخص بعينه ، ثم يدمدم في حدّة وانفعال :

- في اللقطة الأولى ثمّة غول مخيف يزحف حثيثًا لالتهام كل شيء .

ألمح في تلك الهنيهة ، يداه مفرودتان وكأنه يهم بالوثب على شيء ما . سيدة تشيح بوجهها للوراء ، أخرى تدفن رأسها في مقعد أمامها . يسيطر الوجوم على المكان ، حتى أنه يمكنك أن تسمع صوت الإبرة فيما لو سقطت . تمر برهة صمت والعيون مشدودة لضوء قريب للأزرق مُسلّط على المتحدث بشكل دائري جذاب ، ثم يضيف : عالمنا ، لا يلتفت وللأسف لعدوه الحقيقي . بل نراه مشغولاً بوسائط إلهاء فارغة ، كأنها ستجلب له الجنة فوق ظهر حمار ، (تضج القاعة بضحك طويل ، فيما يظل بذات صرامته) . وهذا ما جعلنا نقرر بإجماع ، تخصيص الجائزة

الأولى لِلقَطَة ، نعتقد أنكم ستوافقوننا في اختيارنا لها بعد رؤيتها . (يعود لصمته ثانياً متشاغلاً بتعديل ربطة عنقه) أما لقطة الترتيب الثاني فإنها مقدرة فائقة في اقتناص لحظة مذهلة نادرة . أعني لحظة التضرع والابتهال للرب (يرفع يديه ووجهه للسماء) فنيِ الإضاءة يُحرك الضوء للسقف ثم يعود به للمتحدث الذي يتابع : أما الثالثة ، فإنها الالتحام في أروع صورة . (يصمت كعادته ، يتهامس الناس فيما بينهم ، بدا لي أن الهمس يتصل بكيفية الالتحام المبهمة) . والآن .. اسمحوا لي أن أشكركم بعمق لتخصيص جزء من وقتكم الثمين لحفل التكريم هذا . وأخيراً أترككم مع العروض ، آملاً أن نسمع قراءاتكم حولها . التصفيق الحاد بالأرجاء ، فيما يتجه المتحدث لمكانه بطاولة مستطيلة على الركح بجوار رئيس لجنة المسابقة ، وأعضاء لجنة التقييم . يختفي الضوء الأزرق ، يسود المكان ظلام مطبق ، ثم تبرز شيئًا فشيئًا على شاشة كبيرة تتوسط مرتفع الركح ، لقطة لكوم رملي ، بدت قاعدته عظيمة الارتفاع فيما حافته العلوية المائلة بالضم ، منتهية بحافة تبدو كحد السيف . تذكرت لحظتها أهرامات الفراعنة ، تعجبت كيف رفعت كتلتها بالغة الضخامة . أعطتني المسألة تأكيداً لعظمة مستمدة من عظمة موجدها .

بجوار قدم الكوم الهائل ، تجثم مجموعة من بيوت الطين وست نخلات متوسطة الأعمار ، تهتز وكأنها تنشد نشيدها الأخير ... عند بروز اللقطة أغمض عيني ، أتململ في مكاني قلقًا ، أتحسس جبيني المتفصد عرقًا ، أتمنى لو أنه بمقدوري أن أصدّ الغول المخيف . تنفجر إيقاعات موسيقية مهولة شبيهة بوقع قطرات مائية متتابعة . ثم تعقبها دفعات طبلية متلاحقة الأنفاس ، تحيلني إلى أفريقيا وسهولها الخضراء ... والصفراء في آن ، تعود الأنوار يتنفس الناس الصعداء ، يتنهد بعضهم بتنهيدات

تحمل دلالتها ، يرفع أحدهم يده للجنة فيؤذن له بالكلام :

- قبيل عرض الصورة ، وعند تحدث رئيس لجنة التقييم عن الغول ، كنت أعتقد أنني سأشاهد غولاً حقيقيًا (تضج القاعة بقهقهات مدوية ، ثم يتابع المتحدث) وعلى كلٍ أعتقد أن التنبيه بإظهارها ، كفيل بحل جزء من معضلاتها . (يرفع آخر يده) :

- يُخيّل لي أن أقرب صورة لهذا الغول ، أن ترى ذبابة قادمة نحو جندي مشدود إلى شجرة (يهز رئيس اللجنة العامة ، ورئيس لجنة التقييم رأسيهما ، فيما يظهر على الآخرين الخوف) .

- في لحظة مشاهدتي للقطة ، وضعت يدي على قلبي ، لذا ، أرجو من ملتقطها أن يحدثنا عنها . (يتدخل رئيس لجنة التقييم ملوحًا بيده) :

- للفائزين فرصة للحكي بعد عرض اللقطات الفائزة .

ثم يلتفت للفنيين مشيراً بعرض اللقطة (الثانية) . يخيم الظلام ، يظهر بالشاشة طفل صغير مُلقى على الأرض ، والدم ينزف من فمه ، فيما عيناه شاخصتان للسماء . بدا من وجهه قمحي اللون ، أنه من الهنود الحمر ، أو من مدرسة بحر البقر، أو من الأوراس ، أو من هيروشيما ، الشواهد الأولى على إنسانية الادعاء ... القادمة لـ (عاصفة االصحراء) ولعابها يسبقها على مئات المليارات من دولارات الخليج ... أسمع في القاعة السفلية المواجهة للركح ، جلبة فوضوية ، يأمر رئيس لجنة التقييم بعودة الضوء فتنكمش الفوضى وتبدو سيدة محمولة على الأعناق فاقدة وعيها .

- لنأتي على الثالثة .

ألمح اثنين يلتحمان بشدةً لا مثيل لها . أسمع همهمات تعلو وتنخفض تبعًا للشد والتراخي . في الشد لا توجد فاصلة بين حدود العالم ، فتراه امتداداً لوحدة واحدة . التراخي مجرد بدء لعودة هي أكثر حميمية وتواصلاً

من سابقتها. ولم أدر أي وقت مضت به اللقطة ، إذ جعلت الحضور في حالة مماثلة للقطة ذاتها .

- نأمل أن نكون موفقين في الاختيار ، ولكم الآن انطباعات الفائزين .

وقدمي تختفي في شريط وبري من السجاد الفاخر جيء به فيما يبدو خصيصًا ، أحاول جاهدًا طمأنة ذاتي ، أقلِّب وجوه الحاضرين وجهًا وجهًا، أتأمل تفاصيل حمرتها غير المعتادة لي ، الأعين زرقاء وخضراء . أبتسم لعدسات التصوير ، ألوّح بيدي للقاعة الكبرى في جزئها العلوي والسفلي . تمامًا كتلويحات اليانكي العجوز ، حين قدم إلينا كبطل من أبطال «التحرير» أو «التاريخ» كما نحرص عادة أن نلقبه . يركبني زهو الدوي ، أعتدل في وقفتي ، أنظم ربطة عنقي أتذمر حين أتذكر أنني سأتفرج على صوري بصحف المساء والغد وربطتي مائلة ! !

أمسح العرق المتفصد . أتكلم بصوت بين جهوري وخافت :

- السيد رئيس لجنة التقييم، السيد رئيس لجنة المسابقة، السادة الحضور، أُحي جميع القائمين على التظاهرة (خُيِّل إليَّ أنني أبدلت التاء إلى الميم، ومع ذلك صممت على عدم التراجع) ببادرتهم المحمودة هذه، الدالة على الوعي بالفنون عامة، المأساة الماثلة في لقطتي، تتكرر بين البشر، هل أُذكركم بمأساة شعب صغير يُمحق تدريجيًا بدءًا بتهجير أبنائه وتعقيم نسائه، وفرض الحصارات على مدنه العريقة كالخليل والقدس. (فجأة يعلو الهرج والمرج القاعة بأجمعها ، أحاول تبين الكلمات المتناثرة، المتداخلة، فلم أستطع، وإن كنت عرفت أنها محتجة، ألتفت للجنة فرأيت رئيس التقييم يدق على الطاولة، كعادة رجال القضاء، مخاطبًا:

- يا سادة ، دعوا الرجل يتم سرد تجربته ومن له تعقيب ما ، سنسمح له بالحديث .

- هراء في هراء .

يصيح أحدهم بوسط الصالة :

- جئنا لرؤية بصرية ، أم لتنظير أجوف .

يهتف طرف آخر ، تتكالب عليّ كتل بين صلبة ورطبة من كل حدب وصوب . ذهلتُ حين عرفت أنها أحذية ، لم أتحرك من مكاني ، واكتفيت بالتفادي ميمنة وميسرة . خرقة قماش بيضاء تجاوزتني إلى رئيس التقييم ، وتصادف أن حطت فوق رأسه كطير ينزِل متئداً . لمحتُ بها ثقوبًا تشكل في زخرفتها خاتم سيدنا سليمان عليه السلام ، تشتد حمية الوطيس ، ثلاثة من أعضاء اللجنة مع رئيسها قادمون تجاهي . جذبني أحدهم للابتعاد ، لكنني رفضت مفضلاً المواجهة ، انحنيت لالتقاط الكتل الصلبة ، بدأتُ في ردّة الفعل ... التطويح فوجئت بقوتي المتنامية ، ترد الوجوه الغاضبة للوراء ، تتزاحم على المخرج الضيق . أدفع بمزيد من غضبي ، ألمح الأيادي تتحسس الرءوس . وفجأة، يندفع ناحيتي جل ، يبدو وأنه يمارس نوعًا من الرياضات الخشنة . فكرت بسرعة كيف أتعامل معه . جذبت ناقل الصوت وأخفيته ورائي . تظاهرت بالتقهقر أمامه ، فتشجع للتحفز والوثب. وما أن تقدم في وثبه ، حتى عاجلته بضربة صاعقة ، هوى على وجهه . علا زعيقه المكان ، فارتعدت البقية المتبقية . لمحت أحد أعضاء اللجنة تحت ستار الركح وعيونه قلقة ، مفجعة ، خرجت بتمهل من باب فُتح لتوِّه . تناثرت سيقان الخيبة والسوء لاهثة في انكسارها الأبدي ، بعض الوجوه تتعقبني مستطلعة من عربة صغيرة . ولم تمض ربع ساعة على تواجدي بالفندق حتى انهالت عليّ مكالمات السب والشتم . ثم فوجئت برئيس لجنة التقييم ، صحبة أعضائه يأتي للاعتذار والتأسف ولإبلاغي عن إقامة حفل مصغرلتسليم جوائزنا . في اليوم التالي ،

جمعت أكبر عدد من صحف الصباح ، تعجبت للهالة الإعلامية المغرضة ، وبمانشيتات عريضة ملفتة للنظر :

- «غير سامي ، يسب الساميين اليهود» .
- «عربي يكذبُ جهاراً نهاراً» .
- «شهود يدلون بشهادتهم عن العربي الكاذب» .

أتبين تفاصيل الادعاء فأقرأ العجب : «فوجيء جمهور غفير ، ممن جاءوا لحفل اختتام المسابقة الدولية للتشكيل الضوئي ، بشخص غير سامي ، قادم من وسط صحراء شبه الجزيرة العربية ، يعتلي منصة الخطابة ، ويسب اليهود الساميين علنًا ، زاعمًا أنهم يبيدون شعبًا صغيراً متناسيًا أحقيتنا بالعودة لأرض اللبن والعسل» . ومتى كنا غير ساميين ؟ ثم ألم نعتنق اليهودية في يوم ما ، كدين من أديان الله ؟ أطوِّح جرائد الزيف إلى بعيد ، أتجه للتليفزيون علِّي أجد فيه ما يبعدني عن كدر مؤسف ، وفجأة ، لمحت نفسي بالشاشة ، فيما كان صوت بدا كالمختنق ، يدس السم في الدسم بتعقيب مريب : «هكذا يتكلمون ضد الساميين دائمًا ، بالأمس القريب هددوا بإلقائنا في البحر ، ولولا بادرة ١٩٦٧ الخاطفة لنفذوا وعودهم» . عند الظهيرة ، فوجئت بواحد من أبناء وطني يعرب عن سعادته بفوزي ويعتبره فوزاً لكل أبناء الوطن أو هكذا قال . شدتني كلماته ، بثت في دفقة من الفرح . عرفني بنفسه كصائغ مجوهرات متذوق للفنون ومقيم بباريس . ثم قدم لي علبة مغلفة كهدية تذكارية بالمناسبة . لاحظت أنه لم يبد رغبته في رؤية اللقطة الفائزة . دعاني مُصراً على تناول الغداء معه بأحد المطاعم التي عبر عنها بالراقية .

حاولت أن أعتذر ، لكنه أصر على دعوته . التفت باحثًا عن موظف الأمانات بالفندق فتعلل بإبقائها معنا إلى حين عودتنا ثانية . في الطريق

لاحظت أن الرجـل يشـرد عني بعيداً ووجـهـه يتبدل شـيئًا فـشيئًـا . أسئلة عديدة ظلت تلاحقني. فكرت في التنصـل بالتظاهر بشراء حاجة ما، لكنني عدلت عن الفكرة ... كـانت رائحته الباريسيـة ... وحافة جلابيـته المذهبة ، تشير لرجل واسع الثراء . يقف وراء سيارة لوحتها دبلوماسية متعـللاً :

- عفواً . سنعرج معًا ولدقائق على صديق دبلوماسي بسفارتنا ، مهذب «وذوّاق» للفنون جداً ، سأُعرّفك به .

نظراته مبعثرة ولا تستقـر على مكان :

- لنترك ذلك لفرصة أخرى .

- لا ، لا ، لن نترك هذه الفرصة الغالية .

تتبعـته وأحاسيس تتلاطم في داخلي .. خُـيّل لي منذ بدء دخولي ، أنني أعيش في أوائل القرن السادس عشر . الممر مـبلط بصفائح عريضة ملساء ، بين البُنيّة والحـمراء ، وكأنهـا خارجة من فرن الفـخار . تماثيل متـدرجة في قامتـها ، حاملة الزهور ، دون أن تئن من ثقلها الظـاهر ! ظل وارف بفضاء من أوراق العنب ، ومن أزهار لا أعرف اسمها . في مدخل السفارة ، وبعد اجتيـاز الممر الطويل ، ألتقي جـهازاً مرتفعًـا . يسألني موظفه ونظراته مليـئة بالريبة والشك ، فـيما إذا كنت أحـمل معي شيـئًا معـدنيًا ؟ أجبـته بالنفي ، مـررت بالجهـاز فأطلـق صفارة الإنـذار . قفز الموظف كـالمذعـور وزمجر في وجهي :

- سألتك إن كنت تحمل جسمًا معدنيًا أم لا ؟

- وأنا أقول لك لا شيء عندي سوى جواز سفري .

يلتفت عني متذمراً حين يكتشف الزر المعـدني بالجاكيت . يجد مرافقي فرصـة مواتية في طلب جـواز سفري ، يتـصفحـه بدقة ، أخطو وراءه على سجاد أحمر فاخر ، نصل إلى قبة مذهبة ، بردهة تعطي للمكان هيبة ووقاراً

أندلسيًا . وأين أنت تسير يا هذا الذي يصدق الجميع ؟

ألم يكفك ثقل ما لقيته بحسن نيتك ؟ ألم تتدبر الأمور قبيل انفلاتها من بين يديك ؟ ويقطع ممرًا آخر حبل تساؤلات تأخرت في حضورها إليّ . أسير مكبًا على وجهي كما لو أنني محدودب الظهر . أحس بلكزة بين أكتافي ، التفتُ فلمحت وجهه متبرمًا ومنقلبًا . أتباطأ فيلكزني ثانية .

- يمينًا .

أستدير طائعًا ، دون سؤال .

- قف .

أتوقف في صمت مطبق ، يفتش سترته البيضاء الحريرية ... يفتح بابًا حديديًا ، خُيِّل لي في لحظتها أن بابًا من أبواب السعادة سيفتح . ألم يقل لنا تليفزيوننا أننا ننعم بالرفاهية بفضل رعاية كريمة توليها السياسات الرشيدة... الحكيمة لحكومتنا ؟

- ادخل .

أنحني طائعًا صاغرًا . أتذكر حكاية طفولتي. (قال الولد لأمه حين دعته للنوم مبكرًا. من أجل أن ينام أبيه : لماذا لا يتركني أبي مفتوح العين من أجل أن أرى التليفزيون ؟ يمكنه أن يبدّل عمله من الصباح إلى المساء ويتركني ساهرًا إلى آخر الليل ، يومها ردت الأم بأن طاعة وليّ الأمر واجبة !!) . التصقت بي الطاعة وصرت واحداً ممن شبوا على الصمت والسكون .

- قلت لك ادخل يا بغل .

أفتح عيني أو أغمضها سيان، أتحسس جوانب الحائط، فتصطدم يدي بحفرها متباينة العمق، تساءلت في نفسي عن سرها، هل كانت من صنيع نزلاء قبلي، أم أنها ضرورة تستوجبها الضرورة، يغلق مرافقي الباب، أتذكر لحظتها جملته عند دس هديته بالعربة «في الحفظ والأمان». ولم أكن أعرف

أنني المعني بالعبارة ذاتها . يصدُّ السقف تساؤلاتي ، يردها واحدة إثر الأخرى . أستحضر معارفي واحداً واحداً ، أتنازع مع بعضهم في شجار حامي الوطيس . أتودد لبعضهم الآخر بالأعناق والأحضان . أحاول أن أستدير في مكاني ، أجلس على رجلي اليمنى ، أمرر يدي على ساق العطب ولحم الهزال ، البادئ ببدء غلاء فاحش ، يداهم الجيوب ويجعلها خاوية على عروشها ، صرت أنا المسكين القابع في خانة تحت متوسطي الحال ، أحسب للأشياء بكبيرها وصغيرها ألف حساب وحساب.. بدلت جل عاداتي ، فمن التاكسي إلى الحافلة الخاصة ، ومن الخاصة إلى العامة ، مرة واحدة ، وأحيانًا إلى اللاّشيء . قلت لامرأتي ذات مرة : يا امرأة الخير ، عليك بالفول ، إنه اللحم بعينه . يومها ضحكتْ كثيراً ، لكنها ستبكي اليوم كثيراً . كل الأشياء تتبدّل على المعدمين أمثالي .

أعرف شابًا صغيراً كان يعيش على عائد بيعه للصحف ، فجأة تغير حاله وصارت قيافته حريرية ناعمة ، تتبعت خطواته فاكتشفت أنه من أغنياء طفرة الانفتاح بمدينة الإسماعيلية . وحين همد سوقها ، ظل يلهث وراء مزيد من الثراء بأيسر الطرق ، في أسواق «الكيف» المغلقة ... والمفتوحة . خُيِّل لي أنني سأموت هذه المرة من الجوع والعطش والظلام . فمن سيسأل عني إن فكروا في إبقائي هكذا ؟ وأتذكر بالموت ، موت الألوف ببلدة «البليدة» بالجزائر ... بوحشية مفزعة ، يكاد المرء أن يُكذّب حدوثها ، لولا رؤيتها بالأخبار المرئية . سألني ابني ذات مرة :

من المسئول عن مقتل الصبية الصغار ؟ فاجأني السؤال ولم أدر بما أرد عليه ، هل أقول سلطة الحكومة ، كما يتهمها «المتشددون» ، أم أقول «المتشددون» كما تتهمهم الحكومة ؟ ويضيع الوطن بين تناثر الاتهامات ، تفر صفوته بجلدها وجلة فيما يبقى بعضهم ، متحديًا سطوة الخوف

والفزع. أبدل جلستي ، ولكن هل الراحة في تبديل وضع الجلوس من حالة لأخرى؟ كيف يبدّل شبابنا المساكين حالهم ... وهم مشتتون بين ثالوث التوظيف والسكن والزّواج ؟

أتحسس حائط زنزانتي من أسفل ، الرطوبة فعلت فيَّ فعلتها ، تمامًا كحال إدارتنا المهترئة :

- «يا طويل العمر ، نحن لا نضيع الورق ، هو لوحده يضيع» .
- «كيفاش [1] بربي تعمل هدرة [2] على ورقة ضاعت ، اعمل غيرها» .
- «تباهي [3] ، كان ضاعت دير [4] وحدة غيرها» .
- معرفش ورئتك راحت فين» .

وحصيلة الجمع في غالب «الأهوال» واحدة تمريرة «بغشيش» تحت الطاولة ، تصبح ورقتك حية تنبض بتوقيعات وأختام لامعة . فيما ينطمس بريق ... كلنا في أمسّ الحاجة إليه .

أتمدد على ظهري مستنداً على يدي ، أنقلب على بطني ، أزحف تجاه الباب ، يداهمني العرق بغزارة ، ثم أغيب من فرط التعب والإرهاق في النوم . لم أقدر حين نهضت أن أحدد زمن الغياب . وإن كنت أتذكر بعض ما مر بي في الغياب :

قالت لي : أنت مشاكس عنيد ، عنادك عرق متجذر في عائلتك . قالت لي أمي : يا ولد الكلب دائمًا تركب رأسك . هالسع انشوفه يتدحرج عنك بعيد ... بعيد .

قال أبي : يا ابني ، ادفن رأسك بين الروس وقل يا قطاع الروس .

ضحكت حين اعتقدت للوهلة الأولى ، أنه كان يعني بـ «الروس» الاتحاد السوفيتي الراحل . قلت :

---

(١) كيفاش بمعنى كيف . (٢) هدرة بمعنى الزعيق .

(٣) تباهي بمعنى حسنًا. (٤) دير بمعنى اعمل .

يا أبي ، ثلاثة أرباع قرن ونحن نُطأطيء رءوسنا ، تغاضينا عن كل شيء، مللنا التغاضي ... والإغماض ...

ووجدت نفسي بفحيح بارد ، يتحول إلى ساخن .

وأتذكر بتبدّل الأحوال - تبدّل حال عشيرة نفطية بين عشية وضحاها . فمن ظلال الخيام إلى ظلال القصور ، ومن رعيّ الإبل إلى رعيّ الأرصدة ، ولا يغيظني التبدّل والتحوّل ، بل ضحك التمويه ، فتارة يزعمون لها باحتياجها لبنية متينة من الاقتصاد ، فيقدمون الاستشارات والابتكارات ... وتارة يزعمون بضرورة الاستثمار في مشاريع مضمونة العائد ، فيما بالكنانة، وأطلس واليمن السعيد، مساحات شاسعة للخصب والنماء، تنتظر مستثمرين عربًا يستفيدون ويفيدون . وكذا آلاف مؤلفة من شباب يلوكون الخواء ... ويمتهنون البطالة المُقنّعة في عديد من أرجائنا الشاسعة ، لو صرفنا عليهم القليل ... لعادوا بالكثير ... جفوني مثقلة ، أتمدد من جديد على ظهري ، بعد تناول قطع يابسة من بقايا مفتتة ، وأغيب في حلم تصارع محموم من جمع يقهقهون ملء أشداقهم لحظة انشغالهم بالترتيبات النهائية لإطلاق الصقور . أحدهم يستطلع بمنظار مقرب ، امتداد الأفق إلى مالا نهاية ، يهتف لصحبه ببشرى انتظروها طويلاً :

- سرب من الطيور يجد في طيرانه من الشمال إلى الجنوب .

- الطيور تفضل شر الصحراء عن شر البشر .

قال أحدهم بلهجة مشدودة للحكمة والتأمل ، فيما رمقه آخر بنظرة تحمل دلالته ... أحدثت الكلمات جلبة وفوضى بين الأشياء ، حوافظ الخضراوات ، «تراميس» الشاي ، القهوة ، الحليب ، الماء . الصقور نشطة متحفزة بفارغ الصبر - أو هكذا يبدو - شارة السبح والاندفاع بلا هوادة وراء الطيور الهاربة إلى بعيد . الصمت والترقب سادا البرهة المثقلة بقلق

لا أحد يعرف مصدره . لمح أحدهم صقره وقد بدت عليه علامات غير طبيعية ، فزمجر في وجهه بحدة :

- يا ابن الكلب .

ولم يحفل أحد به ، إذ كل مشدود لهواجسه ، وبلحظة يبدو أنه لا يفصلهم عنها إلاَّ ومضة عين أو أقل بكثير . وفي لمحة كخطف البرق أو هي أسرع ، أومأ حامل المنظار في العربة الأمامية بشارة الانطلاق وفجأة وعلى غير المتوقع توقفت سيارتان من الركب ... فيما ترددت البقية وظلت في حال بين التوقف والمسير . ثم استقرت جميعها على حال واحد ، تحلق الجميع على الصقور المتمردة تحيروا في أمرها ، خاصة أن نظراتها والتفاتاتها تشي بسلامتها وعافيتها . ضرب أحدهم وجه صقره لاعنًا منبت سلالته ، احتج الآخرون على سلوكه وتصرفه غير اللائق مع صياد يكفي أنه يحمل من الأسماء اسم الصقر فما كان منه إلاّ أن زمجر في حدة :

- اسم «الخرا» .

وأفيق على خيوط الفجر ، فيسبح بي الخيال إلى وجوه ألفتها تتكالب على وجاهة الثراء ... في الصباح ، يقتادني سجّان آخر ، عبر ممر ثان ، إلى مكان ما أن وصلت لبدايته ، حتى لمحت ممره مفروشًا بسجاد فاخر ، يخرج من جيبه القيد ، ويكبل معصمى عند اشتعال شارة خضراء فوق المدخل ، يتقدم متئداً وكأنه يسير بين أكداس من البيض ! !

تعجبت كيف تكون السفارة ، نموذجًا مكرراً بالبلد ، سجن وسجّان . وما أكثر السجون حين تعدها . أسمع صوتًا كهربائيًا ، ينفتح الباب تلقائيًا ، أجد نفسي في بهرجة متعددة الألوان ... في صدر المكان ثمة مكتب أنيق من خشب الزان مزدان بجملة من أواني بلورية ملئت بأقلام مُذهّبة ، حاملة للزهور في تناسق مثير وجذاب ، إضافة إلى ملفات وأوراق مكدسة في

أكثر من موضع . يقف بجوار صاحب المكتب ويهمس له بصوت لا أسمعه . كان الأخير نحيلاً وقصيراً بشكل يلفت الانتباه ، حتى أنه بدا في مقعده الوثير مثل «ميكي ماوس» اليانكي ، الذي يحرص تليفزيوننا على تقديمه لأطفالنا ، بزمن يفوق تقديمه لأطفال أميركا ذاتها .

يفتح درجًا من أدراج طاولته ، ويخرج ملفًا ذو لون أزرق تصفح أوراقه صفحة صفحة ، بدت لي جلها عبارة عن قصاصات من الجرائد اليومية . الـ «ماوس» يرد على مرافقي ملوّحًا بيديه في الهواء ، فيما الأخير يهز رأسه دون انقطاع .

فجأة يدوي صوتٌ كهربائي شبيه بالذي سمعته منذ قليل . يهرع «الماوس» لباب جانبي أبيض ذو حافة و«أكرة» مُذهّبة ، حاملاً معه الملف الأزرق .

أتشاغل بتقنية مُلفته للنظر ، جهاز فاكس مربوط بخيط ينتهي بآلة مصوبة ككاميرا التليفزيون ، ثلاث أجهزة من «النقال» ، ومثلها من الهواتف ، وأخرى لم أعرف وظائفها ... يأمرني عند عودته بالدخول ، أجد نفسي في مكتب طويل يكسوه الظلام إلاَّ نهايته ، حيث تقبع شخصية تكتفي من الضوء بمصباح مُسلّط بواسطة حامل متحرك ، أشعر في مسيري بوبر السجاد وكأنه عشب طبيعي .

الستائر ذات قماش بُنيّ لم أر مثله في حياتي . على طاولة مجاورة ، ثمَّة جملة من الدروع والمجسمات الصغيرة . بعضها سيوف لا أعتقد أنها تتصل بالشهامة ... شهائد تقدير لم تكن صادرة من هيئات إنسانية أو أهلية بل من جهات حكومية تكيل لبعضها البعض المديح المجاني الرخيص.

أتوقف قرب طاولته دون كلام ، يتشاغل عني بجملة من أوراق تتكدس أمامه ، أحسست لحظتها بتعمد تركي واقفًا ، كجزء من الامتهان والسحق النفسي ثم رفع وجهه تجاهي :

- هه ، والله عال ، أنت جـاي لمسابقة فنيـة والاَّ ناوي تفسد عـلاقتنا مع الدولة ؟ تذكرت بكلماته تبدل التسميـات وفق ما تقتضيه «المرحلة السلمية الراهنة» ، فمن «العدو الصهيوني الغادر» إلى «قوات الاحتلال الإسرائيلية» ومنها إلـى «القوات الإسرائيلـيـة» وأخيـرًا إلى «السلطـات الإسـرائيليـة» . ولا أدري أي تسـمـيـة سـأسـمـعـهـا غدًا ، عـارفًـا أنه لاشيء يصـعـب على تليفزيوننا العربي ...

- أنا لم أفسد علاقتنا بأحد .

- ويش اللي مكتوب بالصحف ؟

يرمي أعداداً رأيت بعضها بالفندق .

- هذه زوبعة مفتعلة .

- مفتعلة ؟ مِنْ مَنْ ؟

- من لوبي يهيمن على كل شيء .

- ومالنا نحن واللوبيات ؟ (هكذا جمعها دفعة واحدة ! !)

- أرجو أن تفهم طبيعة التشبك و ... (يقاطعني بحدة) :

- اسـمع ، مـا يهمـني أن تصدر هـالحين بيان تـعتـذر فـيـه عن غلطتك بالحفـل ، وتسحب كلماتك اللي قلتها .

ضحكت في نفسي من «السحب» ، أطرقت رأسي في وبر السجاد .

- أنا بنحكي مع من يا حمار .

ولم أرد بشيء ، ينتفض من مكانه ، هازاً رأسي بعنف : حتشوف يا ابن العاهرة .

- اتفوه .

يصفعني بحدة ، أترنح قليلاً ، يضغط على جرس بجواره .

يتوقف الماوس قبالته :

- ابعد «الخرا» ، وشوف أمره .

فجأة أجدني رافعًا يدي لدرء شيء ما يسبح في الفضاء ، يصطدم بقيد معصمي ، تتناثر الشظايا بالهواء ، ألمح «الماوس» يشد يده وينثني عليها بقوة . تذهل الحالة القاذف لا المقذوف ، يهرع ناحية موظفه جاذبًا قطعة قماش بيضاء ، يعود للهاتف مناديًا بعض مساعديه . ينكفئ «الماوس» على وجهه ، فيما يشكل أحمره القاني بركة يعجز السجاد عن امتصاصها دفعة واحدة . يتدافع زبانيته الأشداء ، بعضهم يرفع المرمي كخرقة بالية .. بعضهم يتجه إليّ متعجلاً :

- طَافْ ... بيكْ ...

وتنهال عليّ لغة الفعل ، وهاهم يرفعون جسدًا ويسقطون آخر ، فهل تقدر يد الإثم إيقاف كفّة العدل ؟

ثم أفيق وأجدني رفقة الظلام رفيقي الدائم في وحدتي القسرية ، أهامسه :

كم واحدًا أسدلت عليه رداءك الطويل ، ولم يعد له أحد سواك ؟ كم سمعت حشرجة أخيرة لقلب صاَحَبكَ طويلاً؟ ويظل الصمت جوابًا وحيدًا بضيق الأرض واتساعها. في خلاء البيداء الشاسع، تقطع أيامًا دون أن تسمع كلمة واحدة . يصير صفير الريح وخبطات نط السحالي لغة متفردة . تتبدل الأشياء وتصير في غير طبيعتها المألوفة ، يشدك التبدل إليه ، رغم قلقك وهواجسك، المنتصبات شامخة ، يُخيّل إليك أنها تقف لوفادتك مهللة ومرحبة ، الأشياء الصغيرة تظل أقرب إلى قلبك من أي شيء آخر ، حصى التناثر يعزف معزوفة خلوده ، دون أن يثير ارتطامه أي نعرة قبلية بين حين وآخر. شجيرات صغيرة تتراقص طربًا واحتفاءً بالقدوم، مُشكّلة بظلها الصغير تضاعفًا كميًا من طرب الهز، عجزت راقصة شهيرة عن

تكوينه يوم قدوم يانكي وصفوه بالـ «كبير» كضيف على «الرئيس المؤمن» .

ويحتفظ الرمل برسومات قدومي كما هي ، دون أن يُبدّل أي ملمح فيها . ليقينه أن أي تبديل وتحريف يعني بداية النهاية لأفق يمتد بلا انتهاء .

أسمع وقع أقدام قادمة ، يعقبها صوت دوران المفتاح بالباب . يجذبني واحد بدا لي من بداية شده أنه متخصص في الجذب والرفع . يجرجرني من تلابيبي حتى كدت أختنق . يدلف بي بزنزانة أخرى ، بها ثلاث وجوه كالحة ، يتطاير الشرر من عينيها . تختلط أصوات ضرباتها ... بصوتي ، يشكل التداخل وحدة جديدة تضاف لسلم العزف الموسيقي، أنتفض كطائر ذبيح في قفزات سريعة ، أتدحرج من الحافة للحافة دون أن يتوقف عزفهم النشاز، ثم أستسلم لغيبوبة طويلة. في الصباح ، تستدعيني الشخصية التي حققت معي ، أعبر مكتب «الماوس» بعرج يجبرني على التمهل. أتعجب كيف ينهض من مقعده ويدعوني للجلوس بجواره ، يتحاشى النظر ليدي المنفوخة، حتى أنها بدت وكأن مجموعة من الحبال الغليظة لفت عليها بإحكام يتفوه بكلمات جاهد في أن تكون رقيقة للغاية :

- عفواً ، نعتذر عن ما بدر منا ، وبطبيعة الحال ، أنت تعرف أن الغاية تبرر الوسيلة . وعلى كلٍ اتصل بنا بعض فناني الوطن للتهنئة ، مشيدين بمقدرتك العالية ، التي نحس بأنها مفخرة للوطن !! ولذا ، نكرر أسفنا واعتذارنا الشديد (يلتفت ناحية «الماوس» مخاطباً) : اسمع ، أعطه جواز سفره ، واحجز له موعداً يراه مناسبًا .

وأنهض فارداً يديّ كطائر خرافي يقلع للفضاء ، أعرج على بساط كاد وبره أن يسقطني ، أتمهل في خطواتي ، تختلط عليَّ أسئلة التزاحم والإصرار . يشترها «الماوس» بلهجة أحسست فيها بإخفاء شيء ما عني :

- اتصل بك أناس للتهنئة .

- من هم ؟

- أ ... أ ... لا أذكرهم الآن .

- وهل تنسى من تتعامل معهم ؟

حين لاحظ أنني أرغب في المعرفة ، لم يجد بدًا من أن يناولني ورقة تحمل الأسماء . تعجبت كيف أنني لم أجد من بينهم ولو واحدًا من مسئولي الجهة المختصة رسميًا بالثقافة . فهل كان الفوز يخصني وحدي ؟

- ستأتيك سيارة حال اتصالك بي مباشرة .

- لست في حاجة لأي شيء .

- يحرك رأسه الكبير المغروس في جسده الصغير متابعًا :

- الآن للمستشفى ، وعند تحديد سفرك سنتفق .

- لم أفهم كيف يبعث لي الأصدقاء التهاني عبر السفارة ؟

- وأين تريد منهم أن يبعثوها إذن ؟

- وما علاقتي بكم ؟

يرمقني بنظرة تحمل دلالتها ... لكني أتجاهل الرؤية ، يتبدّل لونه ، يلتفت إليه السائق الذي يبدو أنه لا يجيد اللغة . تتأملني الممرضة المرافقة ، بين المائلة «للماوس» وبين المشفقة على يدي المتورمة بشكل مخيف .

- أووه ، لأول مرة أرى هذه الحالة .

تقول ممرضة الاستقبال بالمستشفى فيما ترتد للوراء ، تأتي أخرى ، وتشيح بوجهها عني ، يتجمهر نزلاء المستشفى وزواره وممرضوه ، في حلقات عجزت صالة الاستقبال عن استيعابهم جميعًا . ذاب «الماوس» وسط الخضم البشري الهائل ، وإن كنت أعرف أنه قريب يسترق السمع . فوجئت بالكاميرات وعدسات التصوير التليفزيوني وأجهزة الالتقاط

الصغيرة تتدافع نحوي بأسئلتها الملحة :

- سجلت المسابقة غيابك المفاجئ .

- وأرفع الجـواب عاليًـا ، تتطلع الوجوه ليـدي المعطوبة ترصد الفـعل ، النسـخة المكررة لذات لا تعـرف إلاَّ الشرخ والعطب ، أحس بوخـزات في بطني ، أنحني متطلعًا رغم الزحام فأكتشف يد «الماوس» ، تمارس مهامها .

- اختطافك غريب ..

وأضحك رغم وجوب البكاء ، أرصد إشارة فى ركن قصى من الزحام، تعقبها إيماءة عاجلة ، نصف غمزة . أبادلها بواحدة مماثلة :

- يا سادة أرجو التوجه للصالة الجانبية .

- تقول كبيرة الممرضات ، كما بدا من علامة تحملها فوق رأسها ..

- يبدو أنك ضربت بآلة جهنمية ، هل لك أن تحدثنا عنها ؟

- قبيل الجواب ، أحس بيد تلح فـى وخزاتها ، أعرف أنها يد «الماوس» حـاولت تجـاهلهـا ، لكن إصـرارها ألزمني بالانحـناء لرؤيتـه فلمـحت منه إشـارة للامـتناع عن الجواب ثم أحس بيـد تلتقط يدي الأخـرى ، ملمسـها ناعم ، حتى أن ضغطتي المتبادلة ، غاصت في ثنايا اللدونـة اللحمية ، التفت للخلف لأجد صاحبة الإيماءة خلفي مبـاشرة ، أضفت ضغطة ثانية ، بادلتني بمثلها ، أتحول إليها كلية ، أزرع يدي خلف رقبتها ، أضمها إليَّ ألمح الصالة حامية الوطيس تشتعل بالعدسات... وكأنها بروق تنذر بهبوب العواصف .

ينتزعني «الماوس» من التلاحـم الحميم ، لغرفة بها طـبيب يماثله في العرض والارتفاع هامسـًا فـي أذني بما يراه نصيحة مثلى :

- ستثير عليك الصور قيامة كبرى ، عند عودتك .

ويقشـعر بدني حين أتذكـر «سلطة الأمر ... والنهي ...» . في الصـباح أقرأ في الفندق عناوين الجرائد العريضة :

- (يعطونه البغض ... ونعطيه الود ...) .

- موقف غامض للفائز الأول ..

أتوقف عند العنوان الأول : (في بادرة هي الأولى من نوعها ، تعرض فائز في المسابقة لحادثة خطف غريبة لاتزال تفاصيلها مجهولة ، رغم أن الاحتمال يحوم حول جهتين ... المختطف ظهر فجأة في مستشفى حالات الطوارىء بيد يبدو أن التعذيب تركز عليها ، الفائز التقى صاحبته بالمستشفى وهكذا نعطيه العشق ... فيما يعطونه حنانًا بنوع مختلف عن المألوف !!) .

تتبعت أخبار المسابقة ، فقرأت أسف رئيس لجنتها لغيابي المفاجئ ، مؤكداً أنه تم إبلاغ الجهات المعنية رسميًا . ثم قطع رنين الهاتف حبل قراءتي . لأُفاجأ بموظفة الاستقبال تُنبئني بمكالمة هاتفية .

- آلو ... نعم .

- ...

- أهلاً ... أهلاً ...

- ...

- وهو كذلك .

- في الموعد المحدد قَدِمَ السيد شيسون رئيس لجنة التقييم رفقة رئيس المسابقة وكافة الأعضاء . جلسنا في صالة الاستقبال ، أبدى الرجل أسفه الشديد على ما جرى يوم الاختتام وكذا لحادثة الاعتداء عليَّ . ثم سلمني في حضور عدد من الصحافيين ، درعًا ذهبيًا مع شهادة تقدير . نهضت وتكلمت بكلمات بدأت تلح عليَّ في التدافع والخروج :

- قُدِّر لي أن أعاني في المسابقة ، ذات ما يعانونه المعنيون بلقطاتنا الأولى ... والثانية ... ولعل ما رأيتموه في القاعة ، ثم ما حدث لي بعدها ليس إلا تدليلاً لما أقول . واكتفيت من الكلام بالترميز وحده ، معربًا عن

شكري العميق لجهودهم الطيبة . وما أن ودعتهم ، حتى رن الهاتف ثانية ، لتنبئني الموظفة الأولى ، بوجود اثنين قدما لتهنئتي . وطلبت منها أن تسمح لهما بالصعود للصالة المجاورة لغرفتي دون أن أطلب منها تسجيل أسمائهم . فوجئت بأنها الفتاة التي التقيتها بالمستشفى مصادفة رفقة أصغر إخوتها ، طلبت لهما الشاي وفي لحظة وصوله تمنتْ لو أنها ترى الجائزة ، استأذنت متوجهًا لغرفتي ، ثم عدت بمطلبها ، وفجأة شعرت برأسي يثقل شيئًا فشيئًا حتى غبت عن الوجود . لم أعرف أي زمن قضيته في غيبوبتي ، وإن كنت أميل إلى تقديره بثلاث ساعات بأقل تقدير . تعجبت بوجودي في المستشفى ، فمتى أتيته ؟ عند العودة لغرفتي ، بحثت عن الدرع وشهادة التقدير فلم أجدهما ، عرفت أن أصابع الأخطبوط نفذت لعبتها القذرة .

وأفيق بزنزانتي على نقرات خفيفة بالباب ، خُيّل لي أنها تتصل بحلم كنته ، لكن المعاودة ثم الفتح جعلني مذهولاً وواجمًا ، أمام زوجتي التي لا أصدق أنها هي .

– هه ، كيف حالكَ ؟

– أعرف الصوت جيداً ، غير أن الذهول قيدني :

– بابا ... بابا .

وأبتسم له من عمق الوجع والتأسي ، أندفع غارقًا في الضم والتقبيل ، أرفعه ، أدور به ، ولا أتوقف إلاَّ على ضمها وتقبيلها الطويل :

– كيف وصلتِ إلى هنا ؟

– أووه ، لا تذكرني بأيام هرولتها ، في الشهر الأول ، قالوا أنهم سيبحثون عن الاسم في السجلات ، في الثاني ، قالوا أن من معه مفتاح دولاب السجلات في أجازة لمدة أسبوعين ، في الشهر الثالث ، اعتذروا

لنسيـانهم المسألة ، واعـدين بالبحث والتنقـيب ، رغم كثرة الأسـماء . حين عدت أبلغوا الآمر ، فأمر بـدخولي ، أفادني بأنك نقلت لمعسكر آخر ، لاعنًا حظه التعس في عدم علمه بمجيئي في المرات الأولى ، رفع سماعة الهاتف ، سمـعتـه يخاطب آمـر المعتـقل الثاني ، فـهمت من المحـاورة ، بما يعني أنني سـأكون طيـعــة بين يديه ... توجـهت إليـه ، فوجـدته ينتظر على أحـر من الجمر ، وعلى الفور بادرني :

- أنت تعرفين أن الزيارات لهذه الحالة مغامرة كبرى .

(حك رأسه ، هرش ظهره ، ثم رفع عينيـه بنظرة تحمل دلالتها ، ثم تابع) على كلٍ ، من أجل عيون العميد حمدان صديقنا . وقبل كل شيء من أجل عيونك ستقابلينه . ولكن .. (صمت ، خفض نظرته حتى وسطي ثم دمدم) ولكن ما المقابل ؟

دفنت رأسي ، وأجهشت ببكاء مـرير ، عندها ربت على كتفي : أنا على يقين من رقة قلبك ومـجيئك إليَّ ... لذا نؤجل المسألة للزيارة الثـانية ، على أن تكون عاجلة ! !

سألني عن «الحلة» التـي معي ، تجمدت أطـرافي . ثم نادى عليَّ أحدهم وقادني إليك . تصمت ، تلتـفت ميمنة وميسـرة ، تمسح قطرات تنحدر على وجنتيها ، تدعك الولد داعية للصمت ، تفتح «الحلة» :

- احتفظ بهذه الملابس تحت جلدتك .

- ولكنها «هراتيش» نسائية ؟

- هش ... «ياهبل» نفذ ما أقول .

- بالمناسبة كيف حال جارتك ، هي بتسمع التليفزيون ؟

حدجتني بنظرة معاتبة ثم دمدمت :

- تسأل عنها قبل أولادك ؟

ويسألني الولد :

- أبي ليه ماتسكنش معانا ؟ ليه أنت في دار ضيقة زي دار الحمام ؟
- يا ولد اسكت .
ولا يسكت الولد لصوت أمه الباحث عن مخرج للمسألة :
- يا امرأة ، أعطهم ما يبغون . هو أنتي حتحطي فيه الزيت ؟ وبعدين من أجل الرِّجالْ يهون كل شيء .
أتخيل نصيحة جارتي من أجل الاختراق والوصول إليّ .
- خلاص ... خلاص . الزيارة انتهت .
يربت سجاني على كتفها ، تستدير إليه في حدّة فيرفع يده كالملسوع . تهاطل المطر غزيراً ، لاذ الولد بي متشبثًا بأسمالي الباهتة بطبقة سميكة من تراكم الأشياء الجميلة !!
رفع السجان قدمه اليمنى حتى ركبته اليسرى . جذبت ولدها إلى ورائها قليلاً ، رفعته ، دوي صراخه بالأرجاء . تحركتْ للوراء قليلاً ، انحنتْ بالمدخل ووجهها إليَّ . ملأتُ عينيَّ من وجهه الملائكي القابع في براءته المحببة . هممت بالتقدم لتتبع الخطى المغادرة ... لكن صدّ الباب حال بيني وبين التمني .
في فجر اليوم الثاني ، استيقظت على حراك الباب ، دلف شخص بجواري ، تجمدت دون حراك ، همس في أذني بخلع ثياب السجن ، تبعته في حذر محاولاً تقليد خطواته على رءوس أصابعي ، أكتم أنفاسي عند كل منعطف ، أتساءل في نفسي عن صلة هذا القائد بي ، تمنيت أن أعرفه ، وأن أعانقه .
- هش يا رجل ، أجننت ؟
أذهلني مطلبه ، فهل كنت أكلم نفسي بصوت مسموع ؟
***

الفصل الثانى

بعض منها ... لا يجدي شيئاً ...

في سواد حالك ، امرأة مغلقة بالسواد ، تتشد رفقة زوج ضربات قلبه تتدافع كدقات بندول ساعة عتيقة ، خطواتها أشبه بخطوات ذئب خائف ، ما أن تحط حتى ترتفع دون أن تسمع لها أي وقع أو دبيب . عمال القمامة في آخر الليل مشدودين إليّ بنظرات الشبق والتساؤل ، أقترب من امرأة بدينة يبدو أنها من بيوت الزنك في أطراف المدينة ، تحث الخطى رفقة رفيقها حاملة ولدها الصارخ بوجع مفجع ، تمنيت أن أُجاذبها أطراف الحديث وأعرف داخلها المُغلّف بالصمت ، تأملتها بنظرة خاطفة ، رأيت فيما يراه الصاحي المتيقظ المرتجف ، كتلاً من لدونتها اللحمية تهتز بين ارتفاع وانخفاض .

وأركب مع زوجي عربة تنتظرنا ، كل منا يرفل في صمته ، نجابه دقائق المرحلة بعيون مفلوتة في المدى ... ربما كانت اللغة المشتركة إيماءات خفيفة، تفرض البرهة عجلة ترجمتها . العربة كذلك صامتة ... وإن بدا بينها وبين النُصب متباينة الأشكال بالمدينة ، محاورة أثيرة تفوق الكلام المسموع وتتأبي عنه ببادرة خارج المألوف ... أمخر عباب البحر بعادة اعتدتها منذ زوال الخوف عن صدورنا ... وولوجنا المتوسط الجميل ، قلاعنا متحركة تنداح على صفحة اليم ، تتسلل بين جدران الريح طوعاً وكرهاً . أتذكر القديم ولا أبتعد عن حديث نغوص فيه لعمق الأعماق طرداً لهم يطاردنا في الدم ... ظننا أن تفجُّر الذهب الأسود ، كما يسميه السماسرة منا ... ومنهم ... سيتكفل بالهم ، لكن الظن خاب ، وبقيتْ

أعواد الصفيح وألواح الزنك علامة فارقة في ظهور المدن وبطون البوادي .

في الفندق ، وفيما كنت أخط تعرجات القـدوم بأصابع الوهم ، رأيتها تتئد في خطوها المقترب من حافة التمني ...

- مَنْ صدرّك لي ؟

- ربما القلاع المتحركة ... وربما الوجد .

- وفي كل خير .

أي قدر أتحفني بكِ ؟

- قدر الأقدار .

- إنكم في منأى عن تقدير الأمور بالقدر .

- بعض منا ..

- أنت لوحة .

- وأنتَ تشكيلها .

ولا تأخـذني تلألآت المكان إلاّ لتدافـعات ضـوئية مـبهـرة بكل لون ... فأتذكر بتشكيل البهرجة التسارع المحموم ... وفاترينات العصرنة ، مقتنيات تراثية بأرجاء فنادقنا فيشدني الحنين لزمنها السعيد ...

- أترغب في تناول الكوكاكولا ؟

ضحكت من الـرغبة ، عـادتني صورة زجاجـها مكوّمًـا في كوم هائل ، يومها سألت سائقاً قادمًا بها :

- أهكذا دفعة واحدة ؟

فرد :

- هذه ردّة فعل غاضـبة من وجوه تشبـهك وتشبهني . يومهـا ، تعجبت للشجاعة المحببة ... وأيقنت أن جذوة المناوءة لليانكيين لن تخمد أبداً .

قالت :

- أأنت من العالم الثالث ؟

ضحكت ثانية وسألتها :

- مَنْ تَرَيْنَهُ الأولَ والثانيَ ؟

يخجلها السؤال ، فتتدارك :

- السائل أدرى بالمجيب ...

- والمجيب يصنف نفسه بنفسه !!!

- أترغبُ في منادمتي ؟

- لنتعارف أولاً ..

- تعارف المنادمة أجدى ...

وأصمت بصمت اثني عشر قرناً ، الهوة الفاصلة بين نجمي اللاّمع والآفل ... نسير معاً على بلاط باريسي مغسول برذاذ ينزل متئداً كما أنه صوف . ندلف بممر تتضاءل أضواءه شيئاً فشيئاً . أتحسس حائط الطريق بعادة اعتدتها في أقبيتنا الحميدة ، ينفرج باب زجاجي مُذهب الحافة ، نطل على وجوه تتجرع كئوسها ، فيما إيقاعات سمفونية تنساب مشرعة الطريق لرقصات هادئة متموجة . تختار لي ركناً قصيًا ، تطل علينا واحدة فاردة يديها بترحاب المقاولة . أعب الكأس تلو الكأس ، أدفن عطشي المتراكم منذ أمد طويل :

- هل قدومك من زمن نحس ؟

تتساءل فيما عيونها الحمراء مشدودة إليَّ .

- كأنك معي ، أو لنقل كأنه زمنك .

- زمني ؟

- نعم .

ولكنك تنعم فيه بحرية مطلقة .

وأقف عند جزمها القاطع :

- مطلقة !! هل سنابك الخيل للاستعراضات ؟ وخراطيم المياه الدافئة لسن الديمقراطية وتدفئتها ؟!!

- كل الدنيا هكذا .

- ولكنك جزمت بالمطلق !

وتُلحق الكأس بالكأس ... أماثلها بالحالة ذاتها ، تُطوّح بامتداد يديها على كتفي ، يهتز داخلي ، تشدني فأطرب لوقعها المثير ، تضمني ... أتذكر دفئاً اعتدته من واحدة تنتظرني على أحر من الجمر .

ثم تنهض بي في صمت مهيب ، تقطع بي مسافات طويلة ، دون أن أكل من المسير ، فهل كانت تعوض سنوات توقفي بسبب شداتها الوراثية ، أم أنها تدربني على حث الخطى ؟ وندلف على جمع يمضغ كل شيء :

- سادتي ، واحد منكم ، جاء من ضفة مقابلة هارباً بجلده (تصمت ، تشرأب الأعناق نحوها) وسيظل بيننا آمناً ، ولن يعود إلاَّ حين يتوقف سيل الأغلال والقيود المتدفقة (أراهم يقتربون منا قليلاً) دوي المقاعد ذكرني بدوي بلاط الشهداء ، أو «البواتييه» . تذكرني الكلمات بأيام خلت ... أرفع يدي فيبدو الأثر راسماً تشكيله المؤسف على استدارة معصمي .

- أأنت تناوئ من أجل المناوءة وحدها ؟

ولا يغيظني السؤال بقدر ما يغيظني جهل السؤال ذاته :

- تأثيره على أولاده ، أفضل جواب .

ولا يجد السائل بما يجيب فيلتزم الصمت .

- أنتم تسلمون بمطلق الأمور ، ثم تصرخون .

يتساءل آخر ، فيما يعدل جلسته :

- من يُسلِّم لمن ؟ ثم إنكم وراء تكوينهم الأول ، فمن ساعد شيخاً جمع الرعاة إليه ، واعداً بكثرة المغانم والزاد وأخضع بهم أطراف البيداء خوفاً وطمعاً .

ألم يقل ذات يوم : «الله في السماء والإنجليز في الأرض» ؟

- أمر غريب ، ألم تمر عليكم ولو نقلة واحدة ؟

ضحكت للسؤال ، ولم أرد بشيء ، ينهض واحد متقدم العمر ، صدره مُرّصع بالأوسمة والنياشين :

- انتفت الربوبية ، واختفت خيالات صكوك الغفران ، لحق بها الإقطاع حين أعماه غروره . واليوم وصلنا منتهى الإجادة .

ولم يفطن للثقوب في سترة عصره ولا يدري - كما يبدو - أنه يعوم في الوهم .

- يؤسفني أنك تجهل من تناوئه .

- فاجأني القول ، تعجبت كيف يدفع به واحد على دراية بتفاصيل الأشياء ... وأجدني في لب غاية كم كنت أود عزف أوتارها :

- يا سيدي ، المناوءة تتجاوز الفعل المرئي ... إلى ما وراءه ... ونحن لم نجبل عليها ، وإن كنا أهلاً لها عند فرضها علينا . ويكفي أن أختصر لك المسألة في سؤال قد يبدو طرحه سهلاً وبسيطًا :

- هل تظن أن اليانكيين قادمون إلينا من أجل عيوننا السوداء ؟

(ويصمت الرجل ، تتعلق به الوجوه ، ثم يدمدم بعد برهة) :

- المسائل ترتبط بمصالح متداخلة .

- هنا يكمن السؤال ، من هم أصحاب العائد في جانبنا ؟

ويفهم الجواب من صيغة السؤال كما يبدو من هز رأسه قبيل الجلوس .

لا أدري كيف سيطر عليَّ لحظتها إحساس بأنني وسط جموع إما أنها

بضبابية وغبش لا يسمح بالرؤيا ... أو أنها تعي الأشياء وتتجاوزها بالتجاهل والتغاضي . أسبر العيون الجاحظة ، أقرأ فيها صيغ تساؤلات لا تنتهي بحافة العالم ، أتذكر بها ذات العيون الحاملة لسوءاتها في تموجات مُخجلة انداحت بشواطئنا ذات فجر غير بعيد ووجدتني أدمدم بقول لن أنساه :

- نحن لا ننسى .

لكنني لا أعرف ، أجهرت بالقول أم أنه لم يتجاوز طرف اللسان !!

- ونحن أيضاً لا ننسى .

وعرفت أن كلماتي انزلقت إلى سمعهم .

- عليكم أن تلحظوا الفارق بين المجيء ... والمجيء . طأطأوا الرءوس خجلاً وتورية ... أومأت لي صاحبتي برأسها ، شدتني من يدي وسط الحشود المحتشدة ، ظننت أنها تود أن أراقصها على أنغلم ستنشدها ، لكنها تتجاوز الوسط ، تنفض بعض الوجوه غبار صمتها وتلح في رجاء المكوث.

- يبدو أنك لا تحب المغامرة يا مصعب ؟

أُطوّح نظري فيصطدم بأضواء مبهرة في كل اتجاه ، فهذه باريس المشبعة بكل شيء .

- المغامرة عندي تتولّد لوحدها يا ...

- روشيل ..

تتوحد إيقاعات الخطى بعد تعارف يفترض حضوره منذ أول التلاقي . تلتقط أوَّل تاكسي ، ألمح السائق ، نظراته مخطوفة بالعجلة والقلق ، حتى أنه يجاهد في أن لا يتجاوزه أحد ، كلماته مقطوفة لا تعرف الثبات . خُيِّل لي لحظتها ، أن من يتعامل مع الناس يكتسب طبعاً منفرداً في تشكيله معهم . لاحظت نظرات موظف الاستعلام بالفندق عند إلغاء الحجز ،

وكأنها تتساءل . أرتفع وراء روشيل بسلّم بيتها الرخامي . تماثيل رخامية صغيرة متعددة بزوايا استراحات المطالع ، أسود كاشرة الأنياب ، أفيال رافعة خراطيمها ، زرافات تعانق الفراغ وكلما أمر على أي منها أمرر عليها يديّ ، فأحس ببرودة صلادتها ، تُرى هل تبدّلت أفريقيا ، وتحوّلت حيواتها من دفء نابض ، إلى برودة قاسية ؟ خُيِّل لي بأن روشيل تمني نفسها ببعض من القارة البكر ، ألم تمتلك رقعتها بالطول والعرض ؟ أجلس على كرسي مقوّس ، حين تتحرك تحس وكأنك في أرجوحة ، جاءت بكرسي مماثل وظلت تتأرجح في حبور :

- ألديك أولاد يامصعب ؟

وأجيبها بهز رأسي .

- والآن مَن معهم ؟

رفعت وجهي للسماء ، ففهمتْ الجواب .

- تقاسيم وجهك تُنبئ بأنهم أتعبوك .

ابتسمت بابتسامة منتهية بالحسرة ... تنهدتُ بعمق مختصراً سيرة وجع لا يحد .

- لديك أولاد وتغامر ؟

خطفت - قبيل الجواب - نظرة لصورة معلقة ، بدت فيه ممثلة شهيرة في زيّ شرطي . ويبدو أن الصورة ملتقطة من فيلم سينمائي .

- أنا أغامر من أجل كل الأولاد .

تُقرِّبُ وجهها إليَّ ، أحس بلدونتها تطفو على طفح وجهي . تنتابني حالة بين الحذر ، وطرف اليقظة :

- أووه ...

أسمع آهتها متقطعة ، كأنها تعب دفقات من المُخبأ تحت الغطاءات

الثقيلة ... وتشدني صورتان ، بجوار صورة الشرطية الممثلة . كانتا متقاربتين في الحجم والزي ، وإن بدت إحداهما قديمة جداً :

- أسرتك ، مُغرمة بالطيران ؟

- اليمنى لأبي في شبابه ، كان طياراً ماهراً بالحرب الثانية . ذات مرة ، قفز بمظلته مضطراً ، (صمتت قليلاً ، تنهدت ، لوّحت نظرة متأنية تجاه صورة سيدة بدت أنيقة للغاية ، تابعت) كانت قفزته فوق بيت عائلة أرستقراطية اهتموا به كثيراً ، نقلوه على الفور لأقرب مستشفى ثم أصروا على عودته لبيتهم والمكوث ثلاثة أيام ، لتنتهي الإقامة بشدة قوية مع ابنة العائلة ، أما الثانية فإنها لأخي «دودو» أو هكذا تناديه أمي ، اشترك في «عاصفة الصحراء» وفي عودته بالطائرة شاء القدر أن تعاوده سيرة أبيه . سأقرأ عليك ما خطه بقلمه في مذكراته الشخصية من قلب المعمعة عن حكاية هبوطه :

الشيخ طاعن في السن ، يتقدم بخطوات شبيهة بخطوات لقلق البحر ، حين يكون كئيباً ، انحنى قابضاً قدمي المعطوبة ، حركها ميمنة وميسرة ، جذبها إليه على حين غرة حتى أنني صرخت من الألم ، تصايح الأطفال في شقاوة ظاهرة .

زغردت الفتيات رغم احتجاج أمهاتهن ... بدت لي ملامح الشيخ ، كأنه واحد ممن قرأت عنهم في بطن التاريخ ، نظراته ثاقبة ، مشدودة بالصبر والحكمة . بذقنه نبت أبيض كثيف كجذور عارية تنشد مع الريح طربها :

- هل تحس بوجع هنا ؟

أذهلتني كلماته ، أجبت في هدوء :

- نعم .

ضاعف جذبته الثانية ، ثم مرر يده اليمنى على ساقي . تساءلت في نفسي ، فيما إذا كان يمسح التراب ، أم أنه ينشط العروق ؟ بعد تمريرات قليلة ، ضغط عليها بإبهامه ضغطة خفيفة . أحسست لحظتها وكأن شحنة كهربائية تسري في ساقي . هز رأسه متمتماً بجمل لم أفهمها . التفت وسط دائرة الصمت المتحلقة حولنا . تطلعت إليه الوجوه ، كل يتمنى لو أن الشيخ يخصه بالمناداة . نطق باسمين لازلت أذكرهما جيداً ، «راشد ونايف». تقدما في هرولة سريعة ، مليئة بالحبور ، أشار عليهما بإشارة ما . فهمت فيما بعد أنها حملي برفق لبيته . سار مرافقي بجانبي مطرق الرأس . حين وصلنا ، رأيت نقوشاً ثلاثية الأبعاد ، فهمت من واقع شرحها أنها لفنان معاصر ، ترمز لحضارات سادت ثم بادت ، الآشوريين ، الفراعنة ، الليبو . وأشار الشيخ إلى مريديه بتسخين الزيت والماء . رأيته يُذوِّب الملح بنفسه في الماء ، ثم يُطوّح بقطعة قماش متوسطة الحجم في الماء ويُخرجها ليُرطبها على ساقي . ظلت القطعة رغم وجع حرارتها ، إلى أن جاء الزيت ، وهذّب الحرارة . لحظتها قارنت بين وجع يحاولون تخفيف حدّته عني ، وبين وجع كنت أستهدفهم به ، فمن أي طينة هؤلاء القوم يا تُرى ؟ لحظتها أيضاً ، تذكرت أقواماً غابرة قرأتُ عليها بذات الرقعة ، أعطتنا ما كنا في أمسّ الحاجة إليه بالعصور الوسطى .

دسّت مُحدثتي مذكرات أخيها . لحظتها ، عرفت سر جذبها لي من بين الحضور ، وسر التصاق الركب . ثم انحنت بوجهها عليّ ، هممت بالارتداد للوراء ، لكنها لاحظت شرودي ، تمازجت الانثناءات ، وصارت كتلة واحدة ، غضّة ، طرية ، كأنها إسفنجة رخوة ، سبحت في كل بحار الدنيا ومحيطاتها ، بقريبها وبعيدها . في الصباح ، تطلعت من النافذة ، رأيت شارعاً للمشاة بجوار خط العربات . تأملت الوجوه وجهاً وجهاً ،

جلها يبدو عليه القلق والتجهُّم . النظرات مفزوعة ، مُشتتة هنا وهناك . الكل يحث الخطى في سباق رهيب مع الزمن ، وكأنه سينتهي بعد برهة قصيرة . فتحت التلفزيون ، على قناة اعتقدت أنها مخصصة للدعايات التجارية ، أبدلتها بأخرى ، فلمحت ذات اللون . انتقلت إلى غيرها ، فإذ بي أُحاصر بالمثلجات من كل لون ، أذهلني الأمر ، أفضت لي بما يسميه الإعلام بـ «الزمن الذهبي» لتفرغ الناس لمائدة الإفطار ومشاهدتهم للتلفزيون .

تنهدتْ بعمق ، زفرتْ كالفرس وحكتْ عن عروق المؤسسات الدولية المستأثرة باقتصاديات العالم ، بآسيا ثمَّة ثمان وستون مؤسسة تُهيمن وتحتكر كل شيء (اليابان ٦٢ / كوريا ج ٦) بأوروبا (ألمانيا ٢٣ / فرنسا ١٩ / بريطانيا ١١ / سويسرا ٨ / إيطاليا ٥ / هولندا ٤) . وفي أمريكا وحدها ٥٣ مؤسسة .

ولا أجد بين تدتفق الأرقام ، أي رقم عربي ولو ضئيل ، مع أننا ندفع لهم بأكبر تدفق نفطي في العالم منذ زمن غير قصير ، ومع ذلك لازلنا فى آخر القائمة ، هذا إذا ما سمح لنا أن نقوم ولو بالتدريج .

كنت ألاحظ أنها بين الفينة والأخرى ، تلمح ساعتها . لحظتها سألت نفسي .. متى نعي الأشياء من حولنا ، بتقديرات زمنية محسوبة ؟ ولكن من أين يكون الجواب ، والأمية الثقافية تعشش بكل بيت ، وتزداد تشبثاً بالبقاء، مع أن تلفزيوناتنا العربية ، تعدنا بزوال الأمية مع حلول «القرن القادم» .
تناولني مفتاح الشقة ، مع ورقة صغيرة تحمل عنوانها وهاتفها :

- إذا رغبت في التجوّل ، وخشيت أن تتوه في عودتك ، قدّم ورقة العنوان للسائق .

ارتميت على السرير بزاوية المكان ، أتذكر لحظتها ولدي ، خمنت في أن أهاتف جارنا ، وأطلب عائلتي ، لكنني خشيت العاقبة ... تذكرت بالعاقبة

حكاية ولد استطاع أن يخترع جهازاً صغيراً لإطلاق الصواريخ الصغيرة قصيرة المدى ، وقبيل التجربة العملية بأيام ، كان الخبر بيد «السلطات الرسمية» وبدلاً من أن تساهم في دفعه للأمام ، أجهضتْ الفكرة وظلت تستدعيه على فترات للتحقيق ، وصار همه ، كيفية إطلاق قيده ، بدل إطلاق صاروخه !!!

وأخرج بتمهُّل ، أصير وجهاً مشابهاً للوجوه التي ألفتها في بداية الصباح، تبتلعني الطريق والطريقة ذاتها ... ألتصق بالأكتاف والأنفاس ، أعدها نفساً نفساً ، أحسب أنها تعد أيامها المتبقية في سباق رهيب مع الزمن.

خُيِّل لي أني قادر على اكتشاف أغوار المارة ، انتحيت بزاوية تقابل الناس مباشرة . ظللت أدير أصابعي في الهواء ، وعيوني مفتوحة بالمدى .

أهذي بكلمات خُيِّل لي أنها تتفق مع حال أول قادم إليَّ :

- أنت ، تمتلك طموحات كبيرة بكبر المحيط . لكنك في حاجة لإرادة قوية ، تحقق ولو جزءاً من طموحاتك الكثيرة ... الكبيرة ...

ألمحه مذهولاً ، يقترب مني هامساً :

- حقاً ، إن طموحي أن أغرق في محيطها الكبير .

ولم أشأ تحريك التأويل ، لكن الولد يغادرني ويغوص في الزحام . ولد آخر ، لمحته يشق الدائرة المتحلقة عليَّ :

- أمك تحبك كثيراً ، أختك تمتهن العشق . وأبوك يعمل بلا كلل .

وفجأة يصرخ الولد ، فيُلفت الأنظار إليه :

- يا إلهي ، هل أنت تقيم معنا بالبيت ؟

وشعرت في صيغة تساؤله بخوف حقيقي من نفسي ، فماذا سأقول للآخرين بعد أن استنفد الكلمات المألوفة . تذكرت لحظتها ، ما كنت رأيته

منذ زمن غير بعيد بمراكش . حاولت أن أتقمّص جملة من الأدوار التي رأيتها ، رغم نقص الإمكانيات اللاَّزمة .

هذه رقصة لثعبان يسمع الناي ، فيخرج من جرة فخار كبيرة . أعزف بحنجرتي فيما تتحرك أصابعي قرب فمي في انحناءة على الجرة الوهمية . تتحول يدي من حالة العزف إلى حالة تمثيل الثعبان خارجاً من مكمنه . تلعب كفي دور الكوبرا ، فيما يتمم أكبر أصابعي ، دور لسان يلعق الفراغ ، ألمح الجمع يرتد للوراء ، خشية ثعبان الوهم ، تدفعني الحالة لمزيد من الحركات البهلوانية . أقفز قفزات شبيهة بالضفدعة تُثير الضحك والتعليقات الساخرة ، ثم تنهال عليَّ قطع النقود المعدنية والورقية ... أنثرها بعيداً عني ، ألوذ بزاوية الحائط ، ألمح الوجوه مذهولة ، أكتافها عجفاء تهتز في الفراغ ، وتذوب في رذاذ مائي يتقاطر كنسيج الصوف . ما أبسط القوم، وما أحوجهم لشيء يخفف من وطأة سعيهم الحثيث في تسابق رهيب يعرفون عاقبته جيداً ... عن قريب أو بعيد .

قال صاحب التاكسي ووجهه مأخوذ بالذهول :

- ما هذه الشراهة ؟

ولم أجبه بشيء ، حين جاءت روشيل ، ذهلت للكوم الهائل :

- أووه ، ما هذا يا مصعب ؟

- مجرد مساهمة متواضعة في توفير القوت اليومي .

وأحس في نظراتها ببعض العتب . لكنها مع ذلك تفيدني بخبر سار :

- اتصلت بأصدقاء كتاب لي ، وسوف يأتون الليلة للسهر والتعرف عليك .

وعلى العموم ، اتصلت بشئون منح اللجوء السياسي وسأساعدك في مسألة تسهيل الإجراءات الإدارية اللاَّزمة . وللعلم ، فإنه سيكون لك عائد

يكفيك لمواجهة المتطلبات الأساسية .

- أنا مطمئن والحمد لله .

- كيف ؟

تسألني فيما تهم بإعداد الغداء .

- سأدبر الأمر بنفسي ، سأعيش على قلمي .

- وحده لا يكفي .

- أنا أجيد أيضاً هواية أخرى وسأوظفّها هذه المرة .

توقفتْ عن تحريك الأواني قليلاً ، حدجتني بنظرة فهمت أنها متسائلة ، وفي الوقت عينه مائلة للوجد .

- أعني ، جماليات التشكيل الضوئي .

- يا إلهي .

- هل شاهدتي التشكيل الضوئي ؟

- عالم اليوم ، عالمي مرئي .

وأحس بارتياح ، كأني عرضت عليها نماذج من التقاطي المحبب في فضاء لا حدًّ له .

- هل معك نماذج عينية ؟

- للأسف ، لا .

ثم أندفع بتلقائية للأواني ، تحتج ، لكنني لا أسمعها .

أُعلِّق وجهي بصورة مكبرة لطفلة صغيرة في ثياب مُهلهلة ، تقبل مجاورها الضاحك من صنيعها الجميل . ألمحها متوقفة عن التنظيف مشدودة بالحالة ذاتها ، وكأنها تراها لأول مرة ! ! تقترب مني ، أقترب منها، نلتصق ، تقترب نظرتانا في الانحناءة ، تمتزج الهمهمتان فتصيرا صوتاً أحاديًا . أغيب عن الزمان ، أصير خارجه ، تائهاً في وجد وشذا الهمهمة

ذاتها . يغـرق العالم بأجمعـه في لجّة بحرنا العـميق . مُتوحِّـداً هو الآخر في أحادية المعنى الكبير .

ويتوالى حضور أصدقائها ، أفتح الباب كلما هتف الجرس بقدوم أحدهم . ألمح تقاسيم وجهه ، أقرأ بعض ما تيسّر لي من سطورها .

حين اكتملت الحلقة ، قدمتني صاحبتي بتفخيم ظاهر :

- الصديق مصعب ، قادم من الجنوب ، هرباً من لظاه ... لا أخفي عليكم أنني لم أعره في بادئ الأمر أي انتباه . لكنني حين عرفت منطقه شدَّني إليه .

ظلت الوجوه مشدودة أكثر من لحظاتـها الأولى ثم تُقدمهم لي واحداً بعد الآخر :

- السيد «ريمون» روائي ، يميل في بنائه إلى التفكيكية .

السيدة «مـارجريت» من إنجلترا ، قاصّـة ، مُغرمة بالخـوض في المغامرات البعيدة، حتى أن أبطالها قدموا لها عريضة احتجـاج، على نفيهـم وغربتهـم!

السيد «ماكسيم» من روسيا ، مُفكّر ومُحلل تاريخي ...

وأخيراً السيد «مانغستو» شاعر مغامر يتميز بتنقله بين مدارس الشعر !!!

خُيّل لي أن هذا الأخـير ذو جذور أفـريقيـة كما يبـدو من اسمه وسـحنته المائلـة للسمرة . ووجـدتني أبادر مارجريت ، قبـيل أن ينفتح الحوار على أي ضفة أخرى :

- إلى متى تظل الأمبراطورية التي غـربت عنها الشمـس ... مجرورة وراء قاطرة أخرى ؟

عدلتْ جلستها ، نفضت الغبار عن بنطلونها ، ثم هتفت متفكهة :

- إلى أن تعود إليها الشمس الغاربة (انفـجر الحضور بضحكات مدوية ، عدلتْ جلستها ثانية وواصلت) : كل ما تراه بشرق الدنيـا وغربهـا ، يصـب في نهاية المطاف بعيون المصلحة . والجـار والمجرور .. يرتبطان برباط واحـد.

تذكرت لحظتها كلمات كنت أرددها بفضاء الوطن ... وقلبي تكاد نياطه تتقطع من فداحة الجهل والتجاهل .

- ما الذي جرى في قضية شقيقك ؟

تتساءل روشيل محاولة تغيير مجرى الحوار .

- لايزال رهن التحقيق .

تلتفت روشيل شارحة :

- أخوها يعمل مديراً تجارياً لشركة «P. A. W» وهي من كبرى الشركات العالمية في البتروكيماويات . تقدمت شركته بإعلان عن بيع منتجاتها المتوفرة ، فما كان من شركة منافسة إلاَّ أن أعلنت عن بيع نفس مواد الشركة المعنية ، وبتكلفة تكاد تصل إلى إسقاط ٣٠٪ من قيمة الفوائد . الأمر الذي جعل المتهافتين يحولون وجهتهم كلية . فما كان من المدير التجاري لـ «P. A. W» إلاَّ أن دبر حادثاً مفتعلاً للعقل المدبر للشركة المنافسة ، وحين اكتشفت اللعبة ، احتجز رهن التحقيق ، ويواجه أقصى عقوبة . تذكرت لحظتها واحداً عربيًا من سلك التعليم ، يُعامل أبويه بفظاظة وخشونة حتى أنه يعتدي عليهما بالضرب والشتم .

ذات مرّة ، طرد من مدرسة كان مديرها ، فانتقل إلى مدرسة أخرى ، وحدث أن تلاعب في نتيجة الطلاب ، اكتشفتْ المسألة وشُكلتْ لجنة تحقيق . وفي يوم جلستها المحددة للمناقشة فوجئتْ بشاب يدخل ثم ينهب الأوراق من أمامهم على حين غرّة ، وعند التحري تبين أنها عملية مُدبرة من المحقق معه . فما كان من التعليم إلاَّ أن فصله من سلكه . ولم تمض بضعة أشهر ، إلاَّ وكان المعنى مسئولاً للتعليم بالدائرة !!

- أنت تميل للشعر أم للقصة ؟

سألني السيد ريمون ، فيما يفْركُ يديه بتتابع .

- أُحبذ سماع الشعر وأميل للتشكيل الضوئي وأزعم أنني أكتب القصة.

- تزعم !!

- نعم .

- هل تسمعنا شيئاً ؟

- وهل القصة تُسمع ؟

- أحياناً !!

وتصادف أن أنهيت البارحة قصة قصيرة جداً ، جذبتها من تحت السرير. همهمت بهمهمة علّها تُتيح تنقية صوتي المختنق بعض الشيء ، ثم دمدمت بالعنوان «حارس الغواية» :

هاجس الرهبة أو شيء ما غيره ، جعل خطوي إليه مشوبًا بالاضطراب، وكأني أنا غير الذي أعرف . من تجهُّم الزملاء فهمت أن وشاية سرت في عروق رئيسي ، فاتخذ قراراً لم يغب إلاَّ عني .

ووجدتني قبالة حائط الصدّ في نهاية الممر الطويل ... تعجبت لتجاوزي مكتبه مع أني لا أقصد غيره !!

- هو أنت اللي ...

تزحلقت بقية الكلمات للوراء في حلق سكرتيرهُ فيما سُدّت حنجرتي ، جرس التنبيه يجلجل بالأرجاء ، والولد الغزال في خفة قبيل تمام رجع الصدى .

- ادخل .

خُيِّل لي بأني في قرن لم يبرح مكانه ، جراب جلدية تتدلى بالانخفاض والارتفاع ... تماثيل لمحاربين من سلالات الانقراض البطيء ... سيوف للتعطل والانكسار من زمن الأمويين ... والعباسيين ... خرائط لأقليات

تنكمش كل يوم ، فيما تغض عنها الطرف أطرف كثيرة ... فوجئت به يغادر مقعده تجاهي ، خمّنت بأنه سينهال عليَّ بأشياء كثيرة ... وضعت للاحتمالات حسابات شتى . مدَّ يده ، أحسست بما يشبه اللسعة الكهربية الخفيفة ... عاد أدراجه مشيراً لمقعد المجاورة ، الوقت تعس وبرهتي ذروته ، في خطفة كخطفة البرق ، أو هي أسرع بكثير ، لمحت جملة تفترش ملفي من الحافة إلى الحافة : ((أزرق اليمامة)) !! قرَّبه إليه وشرع يفرك حصيلته ، فيما أنا مأخوذ ببرهتي الحاضرة ... الغائبة .

- نتيجة النظر مبهرة ، مكانك ببرج مراقبة السنترال .

تطايرت هواجس التضارب ... نهضتُ بتثاقل ، يمناي ترتفع جوار خدي ، واليسرى منضبطة الانضمام على ساقي . ارتفعت قدمي وهبطت فارتجت الأركان لدوي تحية صنعتها للمرء سيكولوچية الانضباط والطاعة . الصور عبر الممر الطويل تنهال بـ ((مطر الإنجازات السكنية الرائدة)) على مدينة موبوءة بـ ((شقيقات)) يتسربلنّ في جلابيب طويلة مفتوحة الجوانب ... الصباح إشراقات كثيرة ، أتلهى بها واحدة واحدة، فم عصفور مشرع للسماء ... وجه صبوح يضرب هفهفة الريح فلا ترد بصفيرها المعتاد .. شيخ يمتهن الهوينا ... اكتشف العالم بأصغريه قلبه ولسانه في طابور أنثوي ، يصطف انتظاراً لمكالمات هاتفية عمومية بالسور تحت برج المراقبة ، انحنيت علي حافة البرج ، أبدلتُ ((أزرق اليمامة)) بـ ((متصنت اليمامة)) . الصباحات الجميلة تنتقي لغة الأطراف الأخرى دون أن أسمعها !! شكرت الله ، وآمر مفرزة الحراسة ، على ثمن محبب لم ينقصه سوى الظفر بواحدة أتمرن على مشاكستها ، ثم أطوعها باللعب على كلمات مخطوفة من وعود معسولة تنهال كمطرٍ خريفي خفيف . بُعيد أسبوعين ، وجدتني أرفل في سيناريو الاستدعاء من جديد :

- يا حمار ، نُكلفك بالمشاهدة فتتحول للتصنت ؟

- يا سيـدي الكلام مُغري ... والله لو جربت يا سـيدي (سكتُّ ، تهلل وجهه ...) .

- هه ماذا ؟

هربت الكلمـات مني ، حبَّـة حنجـرتي ترتفع وتهـبط ككتلة الثـقل في (الأسانسير) .

- يا حمار ...

كدت أقول ، وأنت أبي .

- يا سيدي ، الغواية من صنع الغواني ...

يمناه مفـرودة على خدي ... ويسراه تنسـحب للوراء ، بعيـد رمي مطفأة تبغه المصطدمة بعرض الحائط .

أطوي مسودة القصة وأعيدها لمكمنها . يهـمس الشاعر مانغستو بجملته الشاعرية ، فيما ملامحه تفضي بما فيه من شذو دفين :

- ما أجمل صفو النقاوة ... والنماء .

- ياه، أنـا قـرأت عن زرقـاء اليـمامة، إنهـا مـعجـزة خـارقـة (دمـدم بعـد توقـف قصير)، خسر الشرطي الصباحات الجميلة، والتصنت المحبب.

هتف السيد «ريمون» فعرفت أنه مستمع جيد .

- قدرنا أن نحمل همَّ الآخرين .

تقول مارغريت ، فتعقب روشيل :

- المعضلة أنـنا نجني على أنفسنا بما لدى لصـوص هذا الزمـن من فـرح أو فزع. فـحين يفرحون بعـائدات النهب، تكون المنهوبات حرمـاناً لآخرين يتضورون جوعاً. وحين يقاسون عـقاب الاكتشاف، نحس وكأن الضربات بجلودنا .

تذهل الكلمات الحضور ، فتظل الوجوه مشدودة للصمت والترقب .
وأجدني مع التاريخ القريب :
- تماماً ، كما في هيروشيما ، يومها ، العالم بأجمعه لم يغمض له جفن .
- لكن الرب انتقم منهم .
يقول مكسيم ، فيما يقرأ تفاصيل الآخرين :
- انتقام الرب عادلٌ .
يرد مانغستو دون تحديد للأشياء ، وكأنه فهم مرمى الكلام .
- أنا لا أفهم شيئاً .
تقول مارغريت وهي تتناول قدح الشاي :
- إنه يعني فيتنام .
ترد روشيل فيما هي مشغولة بتوزيع الشاي
- نريدك أن تعيدنا لأيامك ... الأولى .
- لندع ذلك لجلسة أخرى .
- لن نفوّت الفرصة .
وأختطف من حقيبتي كتباً قديمة حصلت عليها من صديق التقيته بالباخرة .
أقتطف كلام الجاحظ في «الحيوان» وابن عربي في «التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية» .
لاحظت انبهارهم ، هتف أحدهم فجأة : إنها أياماً أيضاً ، وألمح من النافذة نماء الخضرة ، فأتذكر أطراف مدينتنا المنصوبة في أطراف الصحراء ، خُيِّل لي لحظتها أن الجِمال ستتهادى عن قريب صبورة صابرة بصمتها الأبدي ، الموغل في بلاغة الصمت الخطاب ... وأحس بوطأة الأثقال

الملقاة بجل الامتداد الممتد من ماء الأطلس إلى ماء الشرق ... أُميّة تستشري كالنار ... ضياع في سراديب الجرم واللهو ... نهب مجاني لعائداتنا ... وينهض الحضور مستأذنين للانصراف . في الليل ، سيطر عليّ هاجس التشكيل الضوئي ، اقتنيت صباحاً آلة كثيراً ما وصفها أصحابي بالجهنمية ... أجوب الأحياء البعيدة ، ألتقط ما وراء المنظور وحين شاهدت روشيل الصور ذهلت :

- يا إلهي ! إنك تكتشف لنا أشياءنا .

أقمتُ معرضاً فردياً بقاعة عرض خاصة . فوجئت باللوحات تباع منذ أوّل وهلة ، الأمر الذي اضطرني لإعادة استخراجها وتكبيرها وتأطيرها من جديد بُعيد انتهاء المعرض . ووجدتني في استغناء عن مد يدي ... أو التسوّل المحسوب ... ولم تغن متكالبات الشراء ... عن قلق استبد بي وجعلني مشدوداً للوطن . ولكن ما السبيل والطرق موصدة ؟ تُرى كيف هو صغيري الآن ؟ وكيف إخوته ؟

ووجدت حلاً ... وإن كان غير جذري ؛ حزمت حقائبي ، اتصلت بالأصحاب واحداً واحداً ، مصمماً على الخروج من حسبان الخسارة .

كنت أعتقد ، أن تحايا وداع أصدقائها ستقتصر على الهاتف ، فإذا بهم يملئون الشقة الصغيرة ، بعضهم جلس مهموماً دون كلام ، بعضهم الآخر يبكي الوداع . بعضهم الثالث ، يُلح في أن لا أقطع خيط الوصل والوصال. في قطار ينقلني للمطار ، أتأمل نماء الخضرة والثيران ترعى بها حرّة طليقة ، فأتذكر امتداد صفرائنا ونوقنا البيض بهاماتها المتسامقة في عنان المدى ... فيما كانت روشيل تتأمل سحنتي القمحية لتغترف منها ما يكفيها في سائر الأيام ...

***

تباشير التمني الأحمر

شمس أعودها أو تعودني ... مُشرقة على زرقة خليجية محببة تتربّص بها المنون ... والأماني ... السموم تلفح وجهي ... وجوه تتئد في خطوها على سلم الطائرة ، كما لو أنها تتوّجس خيفة . أهبط تُربة تماثل أخرى هبط عليها رأسي يوم قدومي للدنيا . التوقعات تحفر أخدود مصائر سأكونها وتكونني ... أتشاغل بكتل لحمية سوداء محببة حركت التاريخ ... بشواهد نَحنٍّ إليها وننتظر من يُعيد سيرتها الأولى ...

عاد شرطي الجوازات ، فيما يهم برفع بنطلونه المتمرد بالانخفاض :

- معذرة ، نحن مضطرون للتحفّظ عليك إلى حين .

- ولكني قادم بتأشيرة دخول من سفارتكم بـ ...

(قاطعني محدقاً) : ذلك واضح ، ولكن المسألة تتعلق باعتبارات أخرى.

- اعتبارات ؟

- اسمعْ ، أنا مجرد موظف ، ينفذ الأوامر .

ردَّ فيما يهرش شعره المنكوش المهمل .

بعربة جديدة ، يربض بمقودها أسد متحفز ، نقلوني لبداية جديدة . فهمتُ أن العربة فرنسية الصنع ، تشاغلت بمقارنتها مع عربة (كارو) يجرها بغل هزيل ، عبر جسر يربط بين جزيرة وأخرى ، لمحتُ صبية تمارس حبورها الملائكي على ظهر العربة المجرورة . أنزلوني بباحة تتصل بسور شاهق ، مُسيّج بأسلاك شائكة ، يبدو أن لها صلة حميمة بالكهرباء .

قادوني ظهراً عبر ممر لا تختلف قتامته ، وسقفه الواطئ عن ممرات عبرتها طيلة عمري ... وجدتني قبالة وجوه عديدة ، بباحة صغيرة ، خُيِّل لي أنني أعرفها وجهاً وجهاً ، يقترب مني أحدها مداعباً ، مبدلاً القاف إلى الكاف :

- بتعرف الكاتْ ؟

تحرجّتُ في الجواب ، وإن كنت أعرفُ سلامة مقصد الرجلْ .

- أسمعْ عنه فقط .

(ثم سمعت صوتاً هامساً بين اثنين : سعيد يسأل عن المُخدِّر)

- تسمعْ عنه بسْ ؟

- نعمْ .

ويضحك سعيد حتى يسقط على قفاه ، دون أن تفلح دائرة (الوزر) مربعة الشكل في ستر سيقانه النحيفة كجريد النخل :

- فيه حَدْ يا جماعة الخير ، مابيعرف الكاتْ ؟

- ويعلو دوي القهقهات وخبطات الأيدي ، فضاء المكان .

- حضرتكْ بتعرفْ البيتاعْ ؟

- البيتاعْ ؟

- أيوي .

وأشرد بذهني متفكراً في الكلمة ، ينكس الرجل يده راسماً شارة النصر منكوسة . لحظتها أدركتُ أن المسألة تتصل بكلام غير مباح . وأدركتْ شهرزاد الصباح ، وهي تُكَدِّسُ القص تلو القص ... وهاهم يصنعونه لمواطنيهم متراكماً في هدر حقيقي لأعمار أوجدها الواجد وحده ، «ومتى استعبدهم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرار» ؟!

سألت نفسي ، فقفزتْ إليَّ بالجواب : من يوم اعتلائهم للمقعد والقعدة .

- يا جماعة ، الزول جديد ولا يعرف حركاتكم ، أعطوه فرصة حتى يتعرف عليكم جيداً .

يقول أسمر طويل القامة ، عريض المنكبين ، يندس في ثوب أبيض مُهلهل ، ذو ياقة دائرية ، تقبع على رأسه ثلاثة أمتار من القماش بأقل تقدير .

- مالك يا الطيب والناس الجُدادْ ؟ روح يا طويل العمر شوفلك شغلانة ثانية !!

يرد خليجي ، يبدو أن الغضب قد استبد به ، لتدخل الطيب الودود .

- يا مقصوفْ الرقبي ، فيه حدا مابيعرفْ شُو يَعْني هَيْدا ؟

ويُكرّر تجسيده العلامة ذاتها .

- أنا أعرف .

ويعلو صوت دوي المدح دافعاً للتفوه بالملفوظ :

- هه ، ماذا تعني ؟

- علامة النصر منكوسة !!!

تبدّلت الوجوه المتعلقة بي ، بعضها تكسوه مَسْحَةٌ من الحزن والكآبة . بعضها يمطُ شفتيه ، بعضها الثالث يدفن وجوهه في خيبته المتراكمة منذ زمن لن ينتهي .

- أنت تذكرنا بزمن نسيناه .

يقول أحدهم ، وقد بدت على ملامحه صرامة ظاهرة .

- وهل تنسى الأمم بسهولة ؟

- لكنه زمن موجع .

يرد آخر دون أن أعرف فيما إذا كان ردّه تبريراً أم أنه مجرد ملاحظة بالمناسبة .

- لكل جواد كبوة .

يقول الخليجي فيما يُعدِّلُ «دشداشته» . وأتذكر به شماتة سادتنا في تلك الأيام ، برمز اعتقدوا أن قيامته قامت في الخامس من حزيران العصيب :

- يا جماعة كيفاش [1] يومها الناس لم تزحف لخط الجبهة ؟

(السي المنجي لا يعرف طبيعة الفواصل ، يهمس أحدهم لصاحبه) :

- بدون سلاح ؟

يتساءل آخر ولا يرد عليه أحد ، يخلد لصمت مطبق ، تعجبت لكتل مرصوصة بمآسيها شكَّل المكان وشيجتها الواحدة ... والوحيدة ... ألمح هزات أيديهم الفارغة في الفراغ ... وحركاتهم المسكونة بالخيبة منذ أمد لم ينته بعد . وأعرف أن القابض ذاته في كدر يفوق المقبوض عليهم وهذا منتهى العدل من العادل وحده . «الدشداشة» تقطع الصمت بترنيمة غائبة حاضرة :

«هلا بالطيب الغالي   عزيز وشوفتك منوه
ترى ماجا على بالي   أشوف عيونك الحلوة»

الرءوس تتحرك بميلات تموجية ... التصفيق يُشكّل دويًا بهائيًا لم أسمعه منذ أمد بعيد . يشد الطيب ثوبه ، ينهض كما الجمل ، يترنم ببيت يزيد من حمية الوطيس :

- «أحبها وتحبني   ويحب ناغتها بعيري»

ينهض آخر ورداؤه الفضفاض يعوم وراءه ، مترنماً بنغمة مرحة :

- «أدفعها وتدفعني   والدافع هو صغيري !!»

ويعلو دوي الضحك ، ينهض الحُراصي ، أو هكذا هتف أحدهم باسمه جلبابه الطويل معصوب من الوسط ، مع خنجر منحني كأنه يتأهّب

---

(١) كيفاش : بمعنى كيف ، واللفظة مغاربية تونسية .

للانقضاض . في حين بدا غطاء رأسه مزخرفاً بلون قريب لألوان غطاء رأس المعتمد بن عباد . أو لبطن حوت «عُمان» :

- «إنّ العيون التي في طرفها حور   قتللنا ثم لم يحيين قتلانا»

ثم ينهض سعيد صاحب القات مترنماً بصوت عذب :

يا بنت عليّ بن زايد [1]
يا عاقلة يا وطية
يا قافرة سبعة اجبي
والثامنة في الحوية
يا قاطعة قاع سهمان
على مطية نظية»

ثم أطرق متذكراً ... فيما نظرات الجميع مصوّبة للانتظار :

«ما يجبر الفقر جابر [2]
غير البقر والزراعة
والا الجمال ذي تسافر
تقبل بكل البضاعة
والا تقبل مر من قبيلي
فيها الورع والقناعة
تدبر الوقت كله
كأنه معاها وداعة
تجيعنا حين نشبع
والشبع وقت المجاعة»

---

(١) من كتاب (أحكام عليّ بن زايد) لـ أناطولي أغارشيف - دار العودة - بيروت - ط . خ ١٩٨٨ .

(٢) المصدر السابق .

ينهض سعدون ، تتعلق به هو الآخر الوجوه ، بدا قميصه مُلطّخاً بالبلح ، فعرفت سنوات العجاف المثقلة :

«طالعة من بيت أبوها رايحة لبيت الجيران
فات ما سلَّم عليَّ يمكن الحلو زعلان»

ويُعيدنا البلح لسيرة الشذو ثانية ، فيشدو الجميع وراءه في لفتة تحمل دلالتها ... ويهتف آخر طلعته بهية ببهاء جرش :

«يا الله صبوا هالقهوة صبوها هيل صبوها للنشامة ع ظهور الخيل»

وأعرف أن نشامتنا لم يعد منها سوى الاسم وحده . اللهم إلاَّ نشامتنا في الأرصدة ... والغواني ... وما إقليم «التفاح» الباكي ، بدون تفاح لأكثر من عشرين عاماً ، وما الناصرة بدون مناصرة إلاَّ شهود إثبات .

قالت لي وهي ترفع جلبابي وما تحته حتى الدرجة الثالثة :

اخلعه ... أريد رؤية سحنتك القمحية غير منقوصة .

قلت : اخلعي ، أريد بياضك كاملاً .

قالت : مذاقك خشبي .

انتصبت قائماً ، هائجاً ، استدركتْ :

- أعني جبلي .

همدت جذوة الثأر ، سكنت .

قلت : مذاقك زبدي .

- قالت مفتعلة الحدّة :

- تعني الذوبان .

قلت : معاذ الله ، أستغفر الله ، ومن لي بعدك إن تبخرتي عني ؟!

تذكرت بالتبخُّر ، تبخُّرَ صاحب لي ، يومها جمعوا الناس أجمعين ، أنزلوه مصفداً بسلسلة طولها سبعون ذراعاً ، ربطوا على عينه خرقة سوداء . أركعوه باتجاه الشمس ، لمع سيف بتار ، هوى على الجلدة أولاً ، تجاوزها

للحم ، وأخيراً العظم . يومها انسلخت الجلدة بكاملها وكأن أحداً يجذبها . لم أر في حياتي جسداً بدون جلدة إلاّ ذلك اليوم . عشرات من الرقاب تدحرجت أمامي فنسيتها . لكنني لم أقدر نسيان تخلّي الجِلدة عن صاحبها. ربما كانت محتجة ... وربما كان عندها شيء ما .

ثم تصفر صافرة الدخول ، كل يدعوني مشاركته بطانيته . أشم رائحة اعتدتها منذ زمن قريب ، أكنس المكان بنظرة مُتعجّلة ، أكتشف أنني قريب من المرحاض بالزاوية . وقد حاول أهل الزنزانة ستره بقطعة بطانية لم يعد رتقها يُجدي .

- أنتم يا جماعة مكشرين [1] عَشَانْ إيه ؟

- صحيح ، نود أن نسمع قليلاً من النوادر .

يتزحزح الطيب الأسمر قريباً مني ، يبدو كتفه كجبل شاهق الارتفاع . ثم يرفع أكمامه مدمدماً بصوت متهدّج :

- واحدة لا تطلب من زوجها أي طلب لها ، إلاّ في لحظة ركوبها . ذات مرة ، طلبت منه أن يشتري لها خاتماً . فما كان من منتصبه إلاّ أن همد على الفور . وحين أحستْ بالمسألة سألته :

- أين هو ؟

فرد عليها : ذهب ليشتري الخاتم !!

وعلا دوي الضحك المكان للمرة الثالثة . الجميع يقهقهون بعفوية ظاهرة . ما عدا رجلاً واحداً يكلّف نفسه تكلّفاً في كل نكتة ، أو بادرة يقوم بها أهل الزنزانة الجماعية . وقد لاحظت انتباهه غير العادي ، في كل مرة يتطوع فيها أحدنا برواية حكاية ما ، من حكاياتنا الكثيرة . وفجأة يطل علينا وجه غاضب ، من وجوه إنكشارية المعتقل ، فيزمجر عالياً :

---

(١) مكشّر : عابس

- يا بغال ، كفوا عن الثرثرة .

وأرد عليه بذات جملته :

- يا بغل نحن لا نثرثر .

يثيره ردي ، يزمجر في وجه غير بعيد عنه :

- افتح الباب .

يتقدم ناحيتي بقامته المديدة ، يلطمني بلطمة ، شبيهة بالتي أطاحت بأسناني ، أرتمي بزاوية الزنزانة قرب المرحاض ، حتى أن البطانية المتسخة تفضلت بحجبي عنه قليلاً .

ثم يجذبني سعدون ملاطفاً ، نتجاذب أطراف الحوار الثنائي .

- ثمان سنوات وأصابعنا متحفزة .

- هل كانت تقبض المناجل ؟

- يا رجل !!

- نعم .

- كانت على الزناد .

ومن فرط إيضاحه ، كان يلعب بإصبعه في الهواء .

- وأيهما أفضل ؟

- وهل تركوا لنا الخيار ؟

- من هم ؟

- هم .

والرابح الوحيد مدبرها ... والخاسر الوحيد منفذها .

وأتذكر مئات الألوف من الطرفينِ ملقاة كخراف يوم النحر ، في مستنقعات حمراء غالية علينا .

- ما علينا في الأولى ، ولكن ، الثانية ؟

- أووه ، أوجاعك لن تنتهي .

لن تكون أكثر إيلاماً من الحقيقة . وأعرف أنها مغامرة حادث عن جادة الصواب ، توجعني متكالبات الرعونة ، آلاف من أطفال الجهراء بالكويت وغيرها ينتظرون آبائهم ليل نهار ... ومئات الآلاف من صبية دجلة ماتوا بلا ذنب ، وأخرون استبدلوا مقاعد التحصيل بأرصفة التسوّل وقمامات الشُح . أمهاتهم ، يلكن خواء لم يعتدنه بالصيدليات ... وجمعيات التموين ... وأتذكر بالموت فجائع تسامعت بها الأرجاء . يوناني مهرّب ، يقذف بجمع من أهل النهر الفراتي إلى عرض البحر ، حين تطارده دورية خفر السواحل البحرية . عشرات ستجد نفسها في خُطى التيه بين لحظة وأخرى ، في قلب الصحراء عند عبورها من السودان إلى شمال أفريقيا .

ألمح محدثي بعين دامعة في صمت مهيب ، فتنهمر مني أنا الآخر دمعة حارة من فرط جراح لن تنسى .

- خلوة ثنائية ، هه .

يقول الطيب ، ألتفت إليه ، فألمح الرجل الذي لا يضحك عادة إلاً بتكلُّف خلف أكتافي ، مع أنه لحظة بدء الحديث ، كان بعيداً . يتابع الأسمر بتنهيدة عميقة : إيه ، يذكرني الدمع بالجنوب ، ذات مرة ، كنت أطارد غزالاً ، توغلت في مناطق التماس ، وفجأة دوى طلق ناري ، تطلّعت ، فألفيت الغزال لايزال في قفزاته العالية . أدركت لحظتها المسألة ، أدرت العربة باتجاه العودة ، فعاود الطلق مغامرته . ضغطت على البنزين ، تكالب الساخن ورائي . حين ابتعدت ، استطلعت قفا العربة لأجدها كالغربال . لمحت ثلاث جثث سمراء متيبّسة ، تفحّصت الأسلحة فوجدتُ عليها نجمة داود . قلّبتها في كل اتجاه فوجدت اسمها صريحًا «تل أبيب» .

- اللعنة .

يقول سعدون وقد تملكه الغضب .

- هذا غير غريب ، هم وصلوا لأماكن كثيرة .

- يا أغى عندهم نسور قوية .

يبدو أن الطيب قد سمع التليفزيون وتأثر به .

- نسور !!

أحتج ، فلا يثيره الاحتجاج إلاَّ في آخر لحظة .

- أيوه نسور ، والأ حتقول إيه في وصولهم لتونس ، وبغداد ، ومطار عنتيبي .

ولا أجد بما أرد على بدوي ، هل أقول لهم لم يصلوا ؟ وقد عرفوا أن ردنا لم يتجاوز في كل مرة أكثر من بيانات التنديد !!

- هل تذكر الفلاشا ؟

يسأل الطيبُ سعدونَ ، مُتكئًا على كتفه الأيمن .

- نعم ، وأذكر صفقتهم المشبوهة .

يا جماعة ، التاريخ لا يرحم أحداً . والد جدي تزوّج من فرنسية ، فظل لقب عائلتنا «أولاد الفرنسية» إلى اليوم !!

يقول البعلبكي مثيراً عاصفة من الضحك بين ثلاثتنا . وألمح بدوي ، الصعيدي متحولاً للصمت ، أربتُ على كتفه :

- أين أنت ؟

- آه ... أنا في الحتة القريبة ... البعيدة .

مضاربهُ لا تقبل التبدُّل ، تشبثه بالصحيح من الأشياء دوَّخ العثمانيين ، وجعلهم يحتارون في طلب عاداتهم المعتادة . عقب كل وليمة يجبرون فيها مواطنًا كادحًا على ذبح خروف لهم ، وعند الانتهاء من الأكل ، يطلبون أجرة تحريك أسنانهم !! ثم يروي بدوي رواية سرحانه :

- مرة وأنا جاي من الزرع ، شفت وجه بالترعة زي الأمر ، من لحظتها وأنا مش داري بحالي ، لا نوم ولا أكل . أمي حاولت أن تعرف السبب ، لكنها لم تقدر على الحكاية (لاحظت أن الرجل قادر على السرد بأسلوب قصصي شيّق) أرسلت لي أخاها . بعدها بثلاث ليال سمعتها تحاور أبي :

- الواد عينه على بت يا مصطفى .
- على بت ؟
- أيوي .
- ومين هي ؟
- عطيات .
- الله ، البلد فيها مليون عطيات يا ولية .
- بت جارك يا مصطفى ، ويقول : هي وبس .

(ضربتْ لحظتها أمي فخذها فأحدث الضرب صوتًا كزفرة الفرس ، ثم مدَّ هو يده ليقرصها في تكوينها الخلفي الكبير . تأوهت بدلال ، وحاولت أن تمتص ثورته العارمة) في اليوم التالي ، بعث لأهل العروس . في ثالث الأيام ، كانت الخطبة والزفّة معًا !!

وأتذكر ببدوي حكايات تعيسات الحظ ، المهملات عن عمد ... وإلاَّ لما كان للعنوسة هذه النسبة الكبرى ببيوتنا المتداعية .

**

- يا ولية ، البنات لهن رب كريم .
- يا رجل عَلِّمْ البنات ، الأولاد مش ح يزوجوا إلاَّ المُتعلِّمات .
- وبعدين معاك ..

والبنات يلكن الصمت والخواء ، يصارعن القدر ... ومتكالبات الجهالة، والكل لا همَّ له إلاَّ رأسه .

- يا بنات ، النصيب يأتي من السماء أم يطلع من الأرض ؟

تساءلت بنت تعلقت بها عيون البنات في ذهول . كل واحدة تتمنى أن تعرف مكمن هذا المحبب التائه عنهن إلى بعيد .

- لا ، هو في الأصل مُعلّق بين السماء والأرض .

ردت عليها واحدة ، فارتفعت الأحداق للمسافة الفاصلة ، فضولاً أو تدقيقًا .

سلَّم عليّ ... سلَّم عليّ لما قابلني ... ولدي يا ولدي ... سلَّم عليّ ...

**

وأين القروض العقارية ؟ والاجتماعية ؟ والإنتاجية ؟

أين فرص العمل الوظيفي أو الإنتاجي ؟ ثم أين الإحصاء والدراسة للناس ؟

- يا ويلي ، بحارتنا الصغيرة وحدها ، أكثر من ١٥٠ عانس .

يهتف علال المراكشي بصوت مبحوح .

- زحمة العوانس عندنا تُحلُّ بتشريع مفتوح .

يقول السي المنجي فيما يعدل قبعته الحمراء المضروبة بالشمس ، مضيفًا، حين قرأ في عيوننا التساؤل : هل يلجأن حين ييأسن من قدوم فارس الأحلام ، للارتباط بأقرب الطرق وأيسرها ، وماتماش [1] أمامهن أي حل آخر يحل المشكل ، مادمنا نغض الطرف عن الحلول الناجعة . عندها تتقدم المفضوضة بطلب رسمي للاحتراف . الحكومة تدرس المسألة من جميع جوانبها ، ثم تمنحها رخصة رسمية للمزاولة !!

- تعيش المزاولة .

يهتف البعلبكي فتتحلق العيون به . يتزحزح السي المنجي ناحيتي ممسكًا

(١) ماتماش : لا يوجد .

بيدي ، متابعًا بصوت جهور : ذات مرة ، غامرتُ ودخلتُ الوكر ، لمحت طابورًا طويلاً على واحدة أشيع بأنها جديدة ، ولأنها على غير العادة تقوم بمقابلتك ، أولاً ، إن اقتنعت بك تقودك لمخدعها . فقد آثرت أن أراها عن بعد عند تحركها بين غرفة وأخرى . تقدمت لأول الطابور متجاوزًا الجميع . هاج القوم وماجوا ثم جذبوني للوراء (انفجر الحضور بضحكات عالية ، حتى أن صاحب القات ، سقط على قفاه كاشفًا سيقانه للمرة الثانية) .

ينحني عليٍّ سعيد بصوت مسموع :

- بالمناسبة ، جند عاصفة الصحراء ، مَنَّ عليهم العرب بما تيسّر . تيمنًا وتبركًا بالنسل الأحمر !!

- هل درست الحكومة التي قدمتهن ، المسألة من جميع جوانبها ؟

يتساءل البعلبكي ، باحثًا في جلِ الأطراف عن مجيب .

- من الجانب السفلي فقط .

يرد عليه بدوي ، فيثير جوابه دويًا صاخبًا من الضحك والزعيق .

- أووه ، هذه فرصة لا تعوّض .

قال المنجي دون أن تحيد عنه صرامته .

- كيف ؟

تساءل الحرصي .

- بالتهجين ، سينجبن لنا مارينز بصورة طبق الأصل !

ثم يترنم بدوي بصوت مُثقل بالحزن والوجع :

(1) أبشر بطول العمر يا كذاب !
لا سِلم جاي ولا حرب ع الأبواب
ربكَ كريم بيسبب الأسباب

---

(1) نص عامي لشاعر الفصحى المصرى/ سمير عبد الباقي في (من مؤتمر لمؤتمر يا قلبي لا تفرح !) بـ (لماذا تركت الحمار وحيداً) (خرابيش زجلية - يوليو ١٩٩٨) .

الحـزب غـيّـر جـزمـتـه بقبـقـاب
والمؤتمـر جـــاي لك ع الـطـبـطاب
كل الكوادر ح ترقـص رقـصـة البطة
وكل مـغرم ح يلهـف م الجميل قَطَة
تركب مـحطة وتـتـركب لك مـحطة

- يا حـمير ، مش كـفاية ضـحك ؟ صـمت قليـلاً ثم أردف اخرجـوا للشمس .

وأحس في نغمة سجاننا ، بأن الاستراحة ، امتنان يمنّون به علينا . مع أن الشمس من صنع الله ! !

ولم يرد أحـد بشيء ، فزمـجـر آمراً بخـروجنا للبـاحة الكبـرى . نحث الخطى في طابور طويل ، أشعـر في وقع كل خطوة ، برسم تكميلي لسـيرة قهر ، لم ينته بعد . أتذكر بوقع الخطى أنغام الصدّ الشجيّة ... ووقعها الأثير ببقع لبنان الجنوب ، الجهة الوحيدة المتكلمة بلغة الحي . مع أن تجار الكلام، وسماسـرة اللغو يتأسفـون على انطلاقات «الكاتيوشا» مـحملينها مسـئولية تعثر المفاوضات .

وأسأل مجاوري ، بكلمات متقطعة الأنفاس :

- هل الهرولة خطة في جدول سجننا ؟

- نعم .

وأتسـاءل في نفسي ، هل أدركت حكومـتنا قيـمة الرياضـة ، وأوصت بإدراجها في مؤسسات «الإصلاح» كما تسميها وحدها ! !

- تعبت .

- وأنا أيضًا .

- والحل دي لوقت إيه ؟

- نجلس .

- نجلس ؟

- نعم .

- تعرف حيجرى إيه ؟

- لا .

- حيطخونا بالنار .

- والمبرر ؟

- خسائر تدريب .

اكتشفت أن بدوي يتقن لغة العساكر ، وأنه فطن يقطف جملته قطفًا من بطن المعنى .

- هل جُندت بالجيش .

- أيوي .

- يا حمير ، أنا أسمع صوتًا ، إن ماتوقفش حنتقم منه .

نهرول لذنب رفع عقيرتنا بالغناء ، فيما ترصد النجوم حبيبات العرق مدرارًا ، ويعض الرجال شفاههم ، وكأنهم مجهدون أمام آلات النماء والتنمية ، التي سمعنا أرقامها تتهاطل عبر التليفزيون . مع أن المستهدفين ، لايزالون حتى الغد ، يحيون بالكاد على الكفاف .

يسقط الرجل الطيب ، يقف بجواره واحد من الجندرمة ، يتخطاه علال والبعلبكي رأفة به . في المرة الثانية ، أعادوا كرَّة التخطي . فأمرهما الإنكشاري بالانبطاح بجواره ، فشكلوا جسرًا لحميًا طريًا . في الصباح ، نسمع جلبة غير معتادة ، يخرجوننا في غير موعدنا على عجل ، نقف ووجوهنا إلى الحائط ، كما عادة سلطة الاحتلال .

يتناهى إلينا صوتٌ أجشٌ قويٌ:

- من منكم شافه ؟

- حسبت أن أحد المعتقلين فرَّ إلى بعيد .

- السؤال للجميع .

سمعت ، في اللحظة ذاتها ، خرخرة رجل طاعن في السمن ، لم يكن من مجموعتنا . تمنيت لو أسأله فيما إذا كان بالمعتقل قسم لكبار السن .

- من يقول شفته ، نرفع للوزير مذكرة ونطلق سراحه .

ولم يسل لعابي ... حتى لو قدر لي أنني رأيت الهارب .

- ومن يقدر يعرف أثره بالرمل ؟

ولم يجب أحد بشيء ، فجأة شعرت بوخز في أكتافي :

- أنت .

- نعم .

- استدر للوراء .

وأجد جسداً مترهلاً كجوال بطاطا ، وجهه كالح ، سواد الانتفاخ على عينيه ، أكتافه مُرصّعة بنجمتين ، مع نسر هزيل . يتابع بعد برهة صمت دفن فيها رأسه إلى صدره المفتوح على خيبات لا تنته .

- اتبعني .

أسير وراءه فيما حرسه الخاص يسير على مقربة منه ، نصل لأثر دائري مرسوم بتفصيل عجيب .

- ما هذا ؟

- لا أعرف .

- لا تعرف ؟

- نعم .

- بغل ولد بغل ، كيف متعرفش ؟

- ومن أين لي بالمعرفة ؟

- بلاش ثرثرة .

- هل الحقيقة ثرثرة ؟

وأحس بوخزة حادة ، حتى أنني انتفضت من مكاني ، تجاهل الفعلة وكأنه لم يسببها ، تفحصت الأثر المرسوم ، كان يغطي بين المرة والأخرى أثر أقدام متعددة خُيِّل لي أن أحدها أثر قدمي ، أخلع حذائي البائد ، وأطبع أثراً بجوار أثر واضح :

- يا قرد ، أنت منشغل بغيره ؟

يا أبي (ولم يفطن أنني أرد عليه سبته) هذا أثر مركبة غريبة حطت بالمعتقل .

- هه ، مركبة غريبة ؟

- وايش تعمل ؟

تتفقد حقوق الإنسان .

ارتبك ، ارتد للوراء كثور هائج ، تحسس جانبه ، زمجر بكلمات حادّة :

- اسمع شوف الأثر حتى آخره . وجيبلي نتيجة مُرضية .

تفرق الجمع ، ظللت وحدي أخطو خطوات لم أحسب لها حساباً . تعجبت كيف يطلب نتيجة مُرضية ، خطر لي أن أحصي المعتقلين ، بتباين خطواتهم المرسومة . ولكن هل خرجوا دفعة واحدة ؟ وقطع عليَّ أحدهم حبل التساؤل :

- هل عرفت النتيجة ؟

- أي نتيجة ؟

- ما كلفك به العقيد جاسم .

تيقنت لحظتها ، أنني كنت مع آمر المعتقل .

- كان يفترض أن يخرج الآمر معتقليه على دفعتين ، حتى يمكن فهم

الأثر جيداً .

- وهذا اللي فعله بالضبط .

عرفت من غباء محدثي القيمة العددية للمقيدين أمثالي .

- هه ، إيش أقله ؟

- قل له الأمر يحتاج إلى وقت طويل .

حين عودتي ظهراً وجدت زملائي يتحلقون على ثلاثة يتمددون بالوسط .

أحدهم يجدد الهواء بطرف ثوبه ، آخر يرش رذاذ الماء بفمه ، ثالث يمرر يده على وجوههم .

- هل حللت اللغز ؟

- هذا تدبير مفتعل .

- مفتعل ؟

- نعم .

- يعني إيه ؟

- يعني معرفة فيما إذا كان فينا واحد ، يميل للتفكير ... والتحليل .

- أمر غريب .

لأول مرة يتكلم الرجل الذي يرمقني في لمحات خاطفة مريبة طوال وجودي بالمعتقل . هززت الطيب الممدد إلى جوار البعلبكي وعلال .

- يبدو أنهم اتجهوا بالشك إليك .

- ملفاتي ببلادي توحي بهذا الوهم الجميل .

- الجميل ؟!!

- نعم .

- كيف ؟

- وهل هناك شيء أجمل من أن تجدهم تائهين ؟
- نحتاج إلى مَرْهَمْ .

يقول الجرشاوي محركًا جسد الطيب ، كاشفًا عن خيوط من الانتفاخات . ونام الثلاثة على بطونهم مجبرين .

في الصباح هاج المعتقل كخلية نحل ، وزير الداخلية سيقوم بجولة تفقدية ، «يطمئن فيها سيادته عن الأمن والأمان» كما قال من أخبرنا بالخبر، متوعداً بإنزال أشد العقوبات على أي شكوى تذكر ، وخاصة في الإعاشة والتموين .

تشاغلت عند خروجنا في الموعد المعتاد ، بيافطات كتبت بخطوط عريضة «الأمن والعدل مستتب بفضل عدلكم وعدالتكم» ، «مرحبًا بك بين أخوتك وأقاربك» ، «عدلت فأمنت» .

تعمدت أن أبتعد عن الضجيج والضوضاء قليلاً ، تعجبت كيف يكون الوزير أخًا للمعتقلين ويعتقلهم !! جاءني الطيب متسائلاً :

- يا أغى ، يغولون للوزير أننا أغاربه ؟
- هم يعنون آمر المعتقل وجماعته !!!

وفجأة دوى صوت هائل ، شبيه بانفجار قنبلة موقوتة ، تجمدت الأطراف ، سيطر الخوف والهلع على قادة وجند المعتقل . زمجر آمره بلهجة حادة :

- يا حيوانات ، اقطعوا الخيط الواصل بين (الكابينة) ومنصة الاستقبال .

نلمح أحدهم يهرول تجاهنا :

- أنت اطلع وشد الخيط لتحت .

بدا العسكري محاولاً تقليد آمره .

- أنا ؟

- نعم أنت .

- ولكن يازول ما عندي خبرة في الكهرباء .

- الألكترونيك سهل جداً !!

قالها مزهواً وكأنه عرف العالم دفعة واحدة !!

- يا رجل ، والله العظيم ما عندي فكرة .

- يا أسود اللون ، تموت وفي فمك أغلظ اليمين ، اطلع وستعرف ، وبعدين أنت حتحركه بهزة واحدة بس .

حرك الطيب قدميه فيما لايزال بمكانه ، حملق في الوجوه الواجمة ، كتماثيل صلدة . تبدّل وجهه من حالة لأخرى ، خُيّل لي أن قامته زادت ، ناشدة حضورها الأوفى في فراغ هائل ... تقدم مني خطوة واحدة ، وظل يشدني إليه بقوة . أحسست لحظتها بفعل وثقل الكارثة ... ثم ينسل ببطء إلى العمود ، يضع قدميه بمخاطيف مدّورة ، وقع خطواته يتفق مع دقات قلبي المتدافقة بصوت مسموع ، يتأملني لحظة وصوله ، أرفع يدي ، يرد بالمثل محركًا سكون الهواء . وفجأة ، أسمع دوي صرخته يجلجل في المدى ، يعقبها سقوطه مشدوداً بمخاطيف قدميه . لاحت تباشير الفرح على آمر المعتقل . وغبت في اللاّ وعي بزمن لا أعرف فيما إذا كان طويلاً أو قصيراً . حين أفقت ، وجدت زملائي يتحلقون عليّ ، لمحت من بين سيقانهم ، جندرمة في عربة الآمر المكشوفة . زمجرت بغضب ، نثرتُ الأيدي الملاطفة ، هرولت تجاه العربة ، ووجدتني خلف السائق قابضًا رقبته ، صوته مخنوق بنداءات الرجاء ، أسقطه أرضًا فتبدو سقطته كبرميل نفط لم ينفجر . تدارك زملائي المصدومون من هول الفاجعة الموقف ، ووضعوا جثة الطيب بالعربة ، بعد أن كانت مهيأة للجرجرة قفزوا ورائي ، ظللت أجوب الباحة ، فيما الجندرمة يلحون بنداء التوقف ،

أضغط «السارينة» أسمع زخات نارية فأتجه ناحية المدخل ، ألتقي بالموكب الوزاري المهيب ، تنحرف السيارات المتدافعة في سرعات جنونية عني ، أشاهد الوزير ، لحظة انحراف عربته بالغة الفخامة ، ينكفئ على جانب !! الارتباك والهلع على سير الحركة المتسارعة في رعونة ظاهرة .

الآمر وجندرمته يتحلقون على سيارة الوزير قبالة سلّم المنصة ، فيما تنشغل أربع عربات بمحاصرة عربتي ، أفلت منها بأعجوبة . لكن بطء الحركة بعد ضرب عجلها بزخات نارية ، جعلها عرضة للمحاصرة من جديد . وقفت رافعًا يدي ، لمحت لحظتها الجميع بما فيهم الوزير منبطحًا ، تندلع صافرات الإنذار مدوية ، يلوذ البعض بكل شيء يصادفونه ، تنهال علينا ضربات العصى واللكم من كل اتجاه ، يقطع أحدهم بحربة بندقيته حبلاً شُدت به الجثة ، ويظل يضربنا به كيفما اتفق . ثم حشرونا بزنزانة ضيقة لا تتسع لستة أفراد . بعد انتهاء الحفل ، جاءنا الآمر ، كان وجهه ممتقعًا للغاية ، يكلمنا بصدر ضيّق حرج ، وكأنه يساق للموت :

- حتمشون إلى قبوركم بأرجلكم .

وتهجم الذئاب بشراسة بالغة ، يختلط دوي اللكمات بآهات الوجع ، يرتفع الامتزاج لعنان السماء ، تصير البرهة المشتورة من الزمن في مصاف التثبيت اللاًعن للإنكشارية ، التي لا تعرف إلاً القسوة وحدها . نبيت ليلتنا وقوفًا دون نوم ولا عشاء . في الصباح ، استطعت أن أسترق النظر «لمنشيتات» الصحف المبعثرة على مكتب الآمر حين دعاني إليه : «سعادة وزير الداخلية ، يُشيد بالعيون الساهرة» ، «سعادة الوزير يُشيد بالخدمات الجليلة في مؤسسات الإصلاح» ، «وزير الداخلية يثني على مستوى المعاملة الحسنة لنزلاء المؤسسات الإصلاحية» . ولا أتعجب من استرسال الكذب الأحمر ، لأنني في الأساس عاصرته ... وقرأت عنه بجل أطرافنا مترامية

الأطراف .

- قل لي : ما الذي خلصت إليه في أمر الأثر ؟

- إنها سر كبير .

يتقدم حتى تصده طاولته ، يحني رأسه حتى يبدو وجهه بالزجاج كخرتيت عجوز :

- هه ، تقول سر كبير .

حط ذقنه على الزجاج ، تابع في همس :

- يا رجل . فرصة إطلاق سراحك تلوح في الأفق .

- لا ، أنا لا أبحث عن ذلك .

- عجبًا !! أتود أن تظل في الظل والظلام .

تذكرت لحظتها ، كيف أنه لم يخطر على بالي بعدُ الحكي عن تجاربي المريرة . ثم قطع عليَّ حبل تفكيري :

- انظر ، هذه صورة مذكرة أعددتها بشأن تعاونك في اكتشاف الأثر ، وهي مذيلة بمطلب العفو عنك . وأنا على يقين من تجاوب الوزير ، خاصة وأنك لم تكن من معتقلي المظاهرة ، كما حال الموجودين معك .

- الوزير ؟

- نعم .

وتذكرته منقلبًا على جانبه بالعربة ، ووجدتني أهتف من جديد :

- تقول الوزير .

- وماذا في الأمر . آه ، أنت تعني حادثة الأمس ، لا عليك ، هذه ملاحظة سجلها على جمع من المتمردين . وكلفنا بالتحقيق في المسألة واتخاذ العقوبة اللاّزمة .

وفجأة دوى الهاتف الداخلي ، سمعته يعطى الإذن لأحد مساعديه بالدخول . بدا الأخير مرتبكًا بعض الشيء لحظة تقديمه حافظة البريد

اليومي . ويبدو أن الآمر انتبه للحالة وفتح على الفور الحافظة . يتوقف مليًا عند أول ورقة بهـا . يبتلع لعابه ،يتململ في مكانه دون أن يـرفع وجهه عن الورقة . يهـرش شعره الأكرت المشـعث تتفصد جـبهته بعـرق غزير يدخل الجرسون حاملاً آنية خاصة ، عليها أطباق مُذهّبة الحواف ، يزمجر في وجهه لاعنًا كل من في المعتـقل . أختطف نظرة متعـجلة لرأس الورقة . ألمح بخط عريض عـبارة «مكتب الوزيـر» وتحتهـا عبـارة أخرى «عاجـل جداً» ، وفي ذيلها توقيع ظاهر بلون أحمر قان . يرفع سماعة الهاتف الداخلي :

- آلو ، استـدعي المفوض المالي على وجـه السرعة ، ثم جـهز لي قـائمة عاجلة بممتلكات دائرة الإصلاح .

- ....

- لا ، احذر إظهـار القائمـة الأولى المكتوبة قـبل استـلامي ... احرقـها فوراً. (توقف قليلاً ثم تابع) أو لتأتِ بها إليَّ حالاً .

يلقي بالسماعة كيفما اتفق . يفتح درجًا بمكتبه ، يستخرج ملفًا ضخمًا . يفتح الدرج الثاني يختار منه مجموعة أوراق ملونة .

بدت يده اليمنى ترتعش ولا تقـوى على شيء . حاول أن ينهض ببعض الملفات بيديه الاثنين .

يدخل عليه المفوض المالي بعد إذن مسبق :

- جهزّ مـيزانية المدة السـابقة كلها . واقفل جـميع العهد المسـحوبة التي أخذها رؤساء الأقسام .

- كلها مقفلة سيدي .

- هذا جيد .

- ولكن سيدي بقي شيء واحد .

- لا شيء ... لا شيء ... اضبط بقية أمورك بنفسك .

- فقط سيدي ...

- هه ، إيش فيه ، مش خلصنا كل شيء ؟

- شيء واحد سيدي .

- هه ، إيش هو ؟

- عهدتك المسحوبة سيدي .

- مالها ؟

- حضرتك ، يا أفندم لم تقفلها .

- ومن هو المالي المتخصص للفتح والقفل ، أنت والاَّ أنا ؟

- هذا صحيح سيدي ، ولكنك أنت قمت بسحبها وصرفها . ثم تابع بعد أن استدرك : ربما تكون سلمتها للإعاشة .

- غبي ، اغرب عن وجهي .

تقهقهر المسكين خطوات للوراء ، استدار ، وقبيل أن يصل الباب بادره مزمجراً :

- اسمع لازم تنهي المسألة قبل ما ينتهي الدوام .

- ولكن سيدي .

- أنت ما بتعرف إلاَّ اللاَّكن ! ! إن ما صفيت الأمور بسرعة تعرف إيش اللي يحصلك .

- سأحاول سيدي .

ضغط على زر يجاوره . دخل موظفه مؤديًا التحية العسكرية دون أن يعبأ بالرد عليها :

- أبعد هالمعتوه عني .

قفزت من مكاني ، توجهت للباب ، في الطريق تصورت المحاولات المستميتة للرجل ، في الاتصال بأصحاب المحلات التجارية المتنوعة .

... عند الوصول لزنزانتي تحلّق حولي أصحابي .

- عملوا معاك إيه ؟

- ولا شيء .

- الله !!

- يا جماعة ، دعونا نُصلّي صلاة الغائب على الغائب .

يقول الحراصي ، فيما يحاول أن يزيل بقعًا طينية ، حسبتها جزءاً من نقوش غطائه العُماني المحبب . أحسست لحظتها بوقع كلمات الطيب الراحل تدور في رأسي ، فيما رائحته الزكية تنبعث من ملابسه المكوّمة بزاوية الزنزانة . تذكرت لحظتها أيضًا ، أن حدتها زادت ، لحظة سقوطه بفعل الضربة الكهربائية الحادة بعمود الكهرباء . عرفت فيما بعد أن اسمها «رائحة الأبنوس» . ولشدة حنيني إليه ، صرت أهتف بدم الأبنوس كلما تذكرته .

- اعلموا ، أنه سيأتي على الدنيا يوم لا حركة فيه ولاسكون . الصمت وحده سيدها الأول والأخير . واعلموا أن الميزان الدقيق لا يظلم ولو بمثقال ذرة واحدة . تفنى الخلائق ، ويبقى المُلك لله وحده . اصطفوا وصلوا صلاة الغائب ، على حبيب بعيد ... قريب : الله أكبر .

سمعت نحيبًا متقطعًا ، ثم عويلاً عاليًا . لم أتمّ صلاتي ، إذ انخطرت أنا الآخر في ذات النحيب . جذبت أقرب واحد إليّ ، حاول أن يمتنع ، لكنه وافق في نهاية المطاف . ثم تراصصنا في طابور واحد ، وظللنا نُعزّي بعضنا البعض . جلسنا في صمت مهيب ، قطعه مقترح فوري :

- يا جماعة احتفظوا بملابس الطيب الراحل مُعلّقة كذكرى غالية علينا .

يقول الحلبي فيوافقه علال وبدوي .

- أنا أقترح أن نتناوب لبس العمامة .

يقول الجرشاوي :

- وأول دور عليّ أنا .

يهتف الوهراني ، متحفزاً على ركبتيه في عادة اكتسبها كما يبدو من حرب التحرير الشعبية ، التي أعطت للعدو والصديق دروسًا لا تنسى .

- وما معنى أن يكون الدور عليك ؟

ويعلو هرج عادتنا المعتادة ، دون تقدير بعضنا البعض أو على الأقل تقدير الراحل الطيب رحمه الله . يجلب البعلبكي قصاصات ورقية ويكتب عليها أسماءنا، العرب يختلفون على الأموات، كما يختلفون على الأحياء!

صمت الجميع حين اختارتني قرعة لم ألهث وراءها .

ألقوا عليَّ بالثوب ، هممت بلفه على رأسي ، في الصباح ، أخرجونا ثانية للباحة العامة ، هرولة الجند توحي بوجود شيء ما .

- ما الأمر يا ترى ؟

يسألني رجل بدا متوسط العمر والقامة ، من زنزانة غير زنزانتي .

- يبدو أن الآمر جرى استبداله .

تأملت الرجل لأعرف ردّة فعله ، ولكنه يبدو أنه يعرف أنهم سواسية كأسنان المشط . ثم برزت علينا كوكبة من العساكر غير متناسقة في قامتها وهيئتها ، تحيط بواحد قصير القامة ، مترهل الجسد ، لحيته كثّة تميل للاصفرار ، يتوقف متطلعًا الباحة فيما يشير بيديه هنا وهناك ، وكأنه يعدد مآثر لا جدوى لها إلاّ في التليفزيون !! على عادة علية القوم ... يتابع سيره بزهو ظاهر ، ثم يتوقف بالقرب منا ، معلنًا عبر ناقل الصوت اليدوي :

- أنتم في مؤسسة إصلاحية حقيقية ، تحرص حكومتنا بجعلها مؤسسة مثالية .

(يهمس لي مجاوري متسائلاً : يفهم من كلامه أن هناك مؤسسة إصلاحية غير حقيقية ؟!) . ظل الآمر يهذي بكلمات نعرفها مسبقًا ، إطراء وتهويل للخطوات السابقة ، واللاّحقة للحكومة ، دون أن يشير ولو لسلبية

واحدة من سلبياتها ، وكأنها ملائكة معصومة من الأخطاء .

- مفهوم .

ولم أنتبه إلاَّ لوقع كلمة قالها ، لمحت وجهه مكفهراً حين لم يرد عليه أحد بشيء . تناول أحد مساعديه ناقل الصوت وحاول إنقاذ سيده من حرج الموقف .

- سيدي يقول لكم مفهوب ؟

وضجت الباحة بقهقة مدوية ، مما اضطر الآمر إلى أن يزمجر بحدة :

- كفى .

ثم أومأ لزبانيته بشارة يبدو أنه متفق عليها . سحب كل منهما نطاقه الأوسط ، وراح يسوق مساجينه كقطيع الغنم ، يضربها كيفما اتفق . تذكرت لحظتها لقطة شاهدتها ذات مرة بالتليفزيون ، جند الاحتلال يدفعون جند من سُلطة الحكم الذاتي ، وقعوا في وهم السُلطة ، وخسروا بذلك روح البدء ... والنهاية . جلست في زنزانتنا إلى جوار الرجل غريب الأطوار الذي كان دائمًا يتكلم ويضحك بتكلف ، تعمد أن يجاذبني أطراف الحديث ، وعينه على آنية الأكل ، الفارغة التي نسيها السجّان :

- الوقوف الطويل أعيانا .

كدت أقول له إنهم يتعبون أصحابهم معنا .

- حظك قوى مع الرجل الأسمر .

تابع فيما يهرش شعره الأكرت المنفوش : وبالمناسبة ، مش عارف وفاته بالعمود كانت مدبرة أم لا ؟

أحسست بوصوله لبيت القصيد المبتغى ، تشاغلت عن السؤال بفك وربط العمامة الطويلة ثم آثرت المناوءة :

- الأجل له ميقات معلوم ، وغالبًا ما يكون على يد الحكومة ! !

تبدَّل لون وجهه ، تغيرت ملامحـه ، تعمد أن يتصنع ابتسامة بدت باهتة لا لون لها . ثم أنقذه الوهراني من ورطة حقيـقية ، حين ترنم بصوت عذب شجي بآيات من الذكر الحكيم تذكرها :

بسم الله الرحـمن الرحيم (**والتفت السـاق بالساق ﴿﴾ إلى ربـك يومـئذ بالساق﴿﴾ فلا صـدق ولا صلى ﴿﴾ ولكن كذب وتولى**) صدق الله العظيـم[1]

وينفرج الباب الحديدي علينا فجأة :

- يا ملاعين ، بتوهمونا بالتوبة ، هو انتم في بطن جامع ؟

- وما مبرر أن نوهمكم ؟

ألجمـه سؤالـي ، إذ كل ما عنده مـجرد جـمل التقطهـا من هنا وهناك ، ويحاول أن يصـنع بها مجـداً لذاته في هيئـة سادته الواهيـة ... ثم يجيء لنا بفتات من الخبز اليابس ، مع طبيخ كل ما فيه قطع بطاطس ، تعوم مع عظام مـجردة من اللحم !! تدخل علـينا ثلاثة وجوه لا نعـرف إلاَّ واحداً فـيهـا . أخذوا بدوي معـهم ، وبعد حوالي ساعة ، عـاد مترنحًا ، أقـتربُ منه فأشم رائحـة مائه ، أطرافـه متـورمة بلونـها الأسـود . رمق القادم به بنظرة تحـمل دلالتها . تحلقنا حوله :

- حمداً لله على سلامتك .

ولم يرد الرجل بشيء ، واكتفى بشروده المثير .

- إصحى ياواد ، العسكري راح .

يخاطبه الجرشاوي بذات لهجته الصعيدية .

- يا جماعة الزلمى مش داري بحاله .

يقول الحلبي متكلمًا بحقيقة واقع يعرفه جيداً .

---

(١) الآيات من ٢٩ إلى ٣٢من سورة القيامة، برواية حفص بن سليمان بن المغيرة عن عاصم .

- لا ، متيقظ ، لكنه غير قادر على الكلام .

يهز بدوي رأسه في إشارة لصدق استنتاجي . ثلاثة أيام ، الليل وراء النهار ، والنهار وراء الليل . وهم يلهجون في الفراغ . في الصباح ، يطل علينا سجاننا ، ويدعوني للخروج :

- ولكن إلى أين ؟

تساءلت ، فرمقني بنظرة حادة .

- قم واتبعني .

لا أدري كيف أنني أحسست برغبة قوية في السؤال :

- هل بهذا المعتقل أطفال ؟

- أطفال ؟

- نعم .

وما شأنك بهم ؟

- مجرد سؤال ، ليس إلاَّ .

- الأطفال لهم معتقل مجاور .

ويالروعة مؤسساتنا الإصلاحية ، ها هي ذي تخصص للصغير قدراً كبيراً لا يختلف في شيء عن الكبير . عند وصولي لنهاية النفق ، توقف مرافقي دفع بالقيد لمعصمي ، طرق الباب ثم جذبني وراءه . لأجد نفسي قبالة ثلاثة وجوه غريبة . أولهم يندس في قميص كأنه حشو لوسادة صغيرة . ثانيهم ، لم تبدُ عليه أي شعرة في رأسه ، ثالثهم جلف ثقيل وإن كان يميل للانحناء دائمًا .

- أنت شفت حاجة غريبة هالأيام ؟

- نعم .

وتململوا على مقاعدهم بإصغاء شديد .

- إيش شفت ؟

- وجود خيط يتدلى من قبعة عسكري مترهل .

تبرمت الوجوه في ذهولها المفرط . لم يقو المعنى على تحريك يده للخيط المائل بجهة غير مرئية لزميليه .

- يا بغل بلاش كلام فارغ .

زمجر من بدا أنه أكثر بدانة .

- والأثر ؟

سألني الثاني .

- أي أثر ؟

- الأثر الطواني بالباحة ، مش كلفك به الآمر السابق ؟

كـادت تفلت مني قـهـقـهة مـدوية على الطوانـي ، فهـو سـمع بكلمـة الأسطواني لكنه لم يتقنها .

- والثمن ؟

- نحن لا نملك شيئًا .

- وها أنتم تحققون معي .

- نحن ننفذ الأوامر .

وتناهي لنا صوت من خلف الباب ينادي باسم أحدهم . ينهض المعني ، ثم يعود لنا طالـبًا تتبـعه . أسير وراءهـم ، ندلف على القامة القـصيرة كـثّة الشعر . الآمر الجديد الذي جمعنا بالساحة في بدء قدومه .

- أهذا المشاكس المنحوس ؟

- بالضبط سيدي .

- أنت بتقايضنا ؟

لمحت ملفي أمامـه مليئًا «بتهـميشات» الإحـالات من واحد إلى آخـر . تمتم بصوت غير مفهوم :

- شـوف هذه صورة مـذكرة مـرفوعـة من الآمـرِ السابق لمعـالي الوزير علشانك ، ولما يجيء الرد انقولك عليه .

وجدت جماعتي تتحلق على جسد لم يبدو لي من ثيابه أنه غريب عليّ، بوجهه كدمات زرقاء ، جعلته كالخبز البلدي . ظللت واقفًا دون حراك.

- هه معرفتوش ؟ (تابع بصوت مـوغل في الحزن) سعدون البصراوي ، أخـذوه بعـدك بقليل . ولم أصـدق عيني ، مـسحت على رأسـه بملاطفـة ، ثـم رشه أحدهم برشفة ماء من فمه .

وصوت «الدم».. صوت واحد بمشارق الأرض ومغاربها، وسطح اللحم واحد في جثة ضاربة أو مضروبة. وليل يقطع أنفاسه طائعًا أو مكرهًا.

قالت له : ألم تشك لحظة بأنني مخبرة .

قال لها : أنا أصلاً أعرف مكانك .

قالت له : وأين ؟

قال لها : بالدائرة المركزية !

قالت له : يا رجل .

قال لها : وحياة عينيك .... (ثم تابع) طيب ، وحياة الغالي عندك ...

قالت له : هو أنت .

تخونه شطارته ، يفضي لها بكل أسباب وحجج جعبته ، وقبيـل رحيـل الليل يعـانقـونه أو يـعانـقهـم ... الأمر سيـان طالمـا أن الوصل والوصـال حاضـر !!

بالبـصـراوي تذكـرت حالـة كُنْتُهـا ... حـالة من الحـالات العـابرة ... السريعــة ... وما أكثـرها بالليل القليل إلاّ عليّ ... فكيف تقـولون يا أهل الله أن الليل قصير ؟

***

الفصل الثالث

حكايات الإشهاد لمتماثلات الإجهاد

بركن قصي قريب للمرحاض ، أتمدد من فرط الإرهاق ، يتبعني صاحب الطربوش الضائع ، يسرد عليَّ سيرة نكده الأول ، وأجدني مشدوداً إلى ما لم أعرفه بعد ، عن زملاء لازمتهم بزنزانة يبدو أنني لن أغادرها .

- تعرف علاش [1] جئت إلى هنا ؟

أشرت له برأسي نافيًا ، تململ في عباءته ، سوّى شاربه :

- تقدمت زوجي المصون بطلب إصدار جواز سفر لها ، في البدء قرءوا علينا جملة من الاشتراطات الثقيلة ، (يصمت ، تعلوه مسحة من الكآبة والقلق ، وكأنه باللحظة ذاتها) أوجدناها شرطًا شرطًا بعد جهد جهيد ، عند العودة ، فوجئت بهم يقولون أنهم نسوا أن يذكروا شرطًا وصفوه بالمهم ، ولم أتمالك نفسي ، فانفجرت في وجوههم بسيل من السباب ، في غبش الليل ، فوجئت بضربات متلاحقة على باب بيتي ، جذبوني من تلابيبي ، حتى أن نفسي كاد ينقطع ، توسلت لهم زوجتي واحداً واحداً ولكن دون جدوى ، في انحناءة من انحناءات الرجاء والتوسل ، تدلّى ثديها من فستان النوم المفتوح ، فجذبه أحدهم إلى فمه ، حاولتْ أن تنسل فلم تفلح ، التفت وبصقت على وجهه ، ثارت ثائرة بقيتهم وظلوا يقذفونني إلى وجه الحائط ، دوى البيت بعويل الصبية ، تعلقوا برقبة الآثم ، طار صواب الجندرمة وراحوا يركلوننا كيفما اتفق ، أودعوني السجن ، طالبت

(١) لفظ مغاربي : لِمَ .

بإجـراء محاكمة لي ، لكنهم في كل مرة يتعللون بحجج واهية ، أفلت من قـبضـتهم ، وجـئت إلى هنا ، (يلتـقط نفـسًا فـتتـعلـق الأبصـار به ، يتـابع ووجهـه المجهد يشي بحزنه الموغل) وفيمـا كنت ذات صباح ، أسير مترجلاً لمقـر شـركـة أعـمل بهـا تناهت إليّ أصـوات مـختلطـة ، بـدت لي أنهـا محتجـة ورافـضة ، بعضـها عن سـوء الأحوال المعيـشيـة ... بعـضهـا عن الحفـر تحت القـدس ... بعضـها عن الحرية ، بعـضها الرابع عن الـتطبيـع . (قفـز أحد المتحـلقين متفكهـاً) التقـبيل ، (وانفجـر المكان بدوي قهـقهـات عاليـة ثم تابع المتكلم) فجـأة ، فوجـئت بأحدهم يجذبني بقـوة ويجرجرني لشاحنة مـقفلـة بدا أنهـا مخصـصـة لنقـل البغال والخـيـول ، للمجـيء بي إلى هنـا .

يقـتـرب صـاحب البنطلـون كـجـراب كنغـر ، أتذكـر بلكنتـه بهـاء «الروشة»... و«النبطية» :

- يا جماعة ، عمركم شوفتو بنات بلد يغازلن الغزاة ؟

(حبـسنا أنفاسنا ، تعلقت العـيون بالسـؤال المثير ، تابع) : بـعيني هاي ، شفت بنات ميليشيا منشقة يُقـبلن جند الاجتياح ، تملكني لحظتها الغضب ، فقررت أن أقتلهن قـبيل جند الاجتياح ، في الطريق ، فوجـئت بقوة أجهلها تستوقـفني ، سـألتني عن هويتي فـأشـرت إلى لساني ، قـيـدوني ونقلوني لدهليـز أرضي مـجهـول ، بعـد أسبـوع من الضـرب المبـرح ، والتحـرّي ، اعتذروا ، وأطلقوا سراحي ، وفي منعطف غير بعـيد استوقفني حاجز آخر ، سألوني عن بطاقة هويتي فأشـرت أنني فـقدتها في غـارة جويـة ، سألونـي عن انتمـائي ، فقلت لبناني ، لطمني أحـدهم غاضـبًا ، فالتـزمت الصمت ، فتـشـوا كل أجزائـي بما فيـهـا المحرمـة ولم يجـدوا شيـئًا . عـادوا للسـؤال عن اسمي وطائفـتي ، أجبتهم عن الشطر الأول وهربت من إجـابة الباقي ،

ثم وجّه لي أحـدهم بندقيته الآليـة معيـداً صياغة نفس السـؤال ، تحيـّرت في المسألة ، هـل أقول من طائفة الشـرق ؟ وكيف الأمر فـيمـا إذا كانوا من الغـرب ، أم أقول العكس ؟ علّقت عـيوني في وجوههم مـتحسسًـا جرحًا عميقًا بخدي ، لايزال الدم المتيبس يُشكّل دائرة الإعلان عنه ، زمجر أحدهم في حدّة :

- مين عملك هيك ؟

- هم .

وكنت أُشير للحاجز الأول البعيد نسبيًا ، تابع حدّته :

- روح لحالك ، وما تيجي من هون لمرة ثانية .

وأخطو خطواتي وقلبي يكاد ينفطر ، وأجدني مُرغمًـا مغادرة الفجائع ، فجـئت لهذا البلد ، وفـيما كنت أتسكع بالطريـق العام ، التقـيت بأصوات صاخبة تـنادي بحاجتها ... ووجدتني أقـفز في طليعتها ، رصـدتني العيون وجرحتني لأنعم بما أنتم تنعمون !!

رفع مدمن القات يده متفوّهًا بصوت رفيع :

- جـذب ابن عمي بندقـيته في أحـد الأفراح ، طـوّحهـا في الفضـاء ، فوجئنا بالقوم يتدافعون ناحية رجل ينتفض كديك مذبوح ، أطلق ابن عمي ساقيه للريح ، احتمى بمركز البوليس الذي أعلن التعبئة ، ورغم ذلك اقتحم أقارب القتيل المركز وذبحوا الرجل من الوريد إلى الوريد ، هرعت عشيرتنا للمركز لكنهـا لم تلحق بأحد ، ظلت كل عشيـرة تتربّص بالأخرى ، آثرت السـلامة وفـررت بجلدي إلى هنا ، التحـمتُ بالمظاهرة ، تركـزت الأنظـار عليّ ، ثم تفضلوا بضيافتي معكم .

ونلتفت لصوت سـعدون كأنه قادم من بئر مـعطلة ، نعطه الماء في سقاء بلاستيكي مشرشر الحافـة ، مخدوش من كل جـانب ، يعب الرجل الماء ،

دون أن يترك منه شيئًا ، يتنهّد بعمق فتبدو تنهيدته كزفرة فرس النهر ، ثم يشرع في سرد سيرة لم تنته بعد :

- كنا ذات مساء ، نتابع مسلسلاً تليفزيونيًا شيقًا ، حتى أنه صرفنا عن تنظيف الرطب وتخليصه من الشوائب وفجأة ، برز المذيع ليعلن عن بيان عاجل سيُلقى بعد قليل ... وعلى الفور ، بدرت مني سبّة علنية ... بعد حوالي نصف ساعة ، فوجئت بعربة تصرع سور الزنك المحيط بكوخنا العتيق ، بحي تتكئُ فيه أكواخ الصفيح على بعضها ، مُشكّلة نطاقًا ينطق بالقهر ، على مدينة يدعون انتماءها لمدن الحضر الكبيرة . ويعلو دوي لكمهم ورفسهم لأطفال البراءة الهاربين ، كجرذان تفر من قَدرها ، أمهم انكفأت على وجهها ، فوق خشبة ضاحكة بمسامير صدئة ، أول لكمة تلقيتها كانت تحت ذقني (تذكرت لحظتها ضربتي القاسية .. وأسناني المبعثرة ... البطلة ..) ، عرفت لحظتها أن الضارب ينتمي لوحدات الحزب الخاصة ، ثم جرجروني وراءهم للعربة .

في الصباح ، أولادي الستة انتشروا كجيش النمل ، بين الدوائر الأمنية ، والحزبية ، قال أحد المخبرين لزوجتي :

- شكوتك تحتاج لفتح محضر ، وفتح المحضر كفتح العارفين ، يحتاج لمقعد ، والمقعد محظور إلاّ في داخل الغرف ، رضخت الزوجة للأمر ، لكن المحقق انحرف بأسئلته عن جادة الطريق ، فتركته يلوك لكنات خبثه الدفين ، وبعد أشهر من التحقيقات الجارية على قدم وساق ، أخلوا سبيلي ، مقابل أن أوقّع في نقطة الشرطة المقابلة لأكواخنا كل يوم . بعد أيام ، وفي جنح الظلام ، قفزنا في أكبر قارب بحري ، ظل يمخر بنا عباب الخليج فيما ملحه ينكأ جراحنا العميقة ، ترجلنا هنا ... وسط حصارات الأسئلة ، قسمونا وفق ضربات الحظ ، على زنازين يبدو أنها كعدد النمل .

رفع بدوي يده ، انزلق كُمْ جلبابه فبان شعر إبطه .

ولم يتكلم أحد منا بشيء يذكر ، فتابع : كنت أبيع الجرائد والمجلات ، آثرت تحسين دخلي ، فقررت الخروج بعائلتي ، قصدت بلداً بترولیًا كبيراً... عملت مع تاجر جملة ، لكنني فوجئت بحركات مريبة تستهدف زوجتي . وحين فاتحته بعدم مقدرتي على مواصلة العمل ، وطالبت بمستحقاتي المتأخرة . تلكأ وظل يعد ويخلف . أخبرته بوجود ديون عليَّ من محل للمواد الغذائية ، لكنه عاد لوعد زائف . بعد يوم واحد فوجئت بصاحب المواد الغذائية - على غير عادته - يُلح بتسديد ديوني وإلاًّ أبلغ السلطات الرسمية ، حاولت إفهامه بظروفي ولكنه رفض مجرد الاستماع . ثم جاءني متوعداً بعدم تسليمي جواز سفري إلاَّ بعد تسديد كل ما عليَّ . فوجئت بالأمر ، لأن الجواز كان بحوزة رب العمل . ثم حدد لي مهلة ثلاث ساعات وأدار ظهره . قبيل انتهائها بقليل ، عاد بوجه بشوش مرح ، تعجبت لتبدله وتبرمه السريع عارضًا قبوله بأي بدائل مناسبة . سألته ، فرد بأنه يمكنني تسخير الإمكانيات المتاحة ، مشيراً بعينيه لزوجتي التي تصادف لحظتها ، أنها كانت تدخل علينا حاملة أكواب الشاي . ووجدتني أضربه بالأكواب بما فيها ، زمجر بصرخة حادّة ، ارتد للوراء حتى صدّه الحائط ، فقفز عاليًا من شدّة اللظى ... ارتمى متوسلاً الستر والعفو ... تجمع أهل الشارع ، أخذت الحمية أقاربه ، وانهالوا عليَّ وعلى زوجتي بالضرب والسباب ... كدنا نهلك ، لولا تدخُّل الطيبين من الجيران .

حين رفعت الأمر للجهات المختصة ، طالبًا مستحقاتي ، ورد اعتباري . تلكأت الشرطة في استدعائهما . وبعد حوالي أسبوعين ، أُجبرت على التنازل ، عن كل شيء مقابل . جواز سفري !! ووجدتني للمرة الثانية أركب قاطرة الرحيل إلى هنا ... وذات ليلة ، فوجئت بالشرطة السرية تداهم بيتي ، لبيعي الفرش التي كتبت بها يافطات مظاهرتكم ...

أحسست في قرارتي تجاه هذا الرجل بشيء ما ، شيء لا يمكن تفسيره أو تعليله ... ربما كان لمعشره الطيب وصبره وفطنته ... أسباب تدعيمه لنظرة التقدير . تنحنح صاحب البنطلون الشبيه ببنطلون البعلبكي ، رفع فراغ بنطاله ، عدل غطاء رأسه المزركش الشبيه بالخليجي .

- اللي شفتو في حياتي ، عمرو ماشافو زلمى في حياتو .

(اقتربنا بصمت مطبق حتى أن سعيد مدمن القات ظل فاغراً فاه ، فبدت أسنانه خضراء لامعة) ستة أيام وأنا أرى الموت ليل نهار . جاءوا بي لأقرب دهليز وراحوا يرمون عليّ العصي الواحدة تلو الأخرى . حتى غبت عن الوعي في اليوم الثاني أعادوا الكرّة الأولى . في الثالث خرجوا بي لساحة واسعة خالية إلاّ من مشنقة كبيرة ، ظللت مجبراً على الوقوف بجوارها خمس ساعات كاملة ، وكانوا في كل مرة يستفزونني بجلب واحدة من مستلزمات الشنق ، مرة جلبوا الحبل وقذفوا به عند أقدامي . فظننت أنه لتقييد يدي ، ومرة ربطوه بوسط الخشبة . في الثالثة جاءوا بالمقعد ووضعوه بالوسط . باليوم الرابع ، شدوني من قدمي لعربة «لاندروفر» إنجليزية عتيقة ، تذكرت أنني قرأت عنها إعلانات دعائية في مجلات قديمة بخزانة جدي ، وكانت تعقيباته تملأ الحواشي ، ومما كتبه (قوتهم تكمن في الحديد ، وقوتنا تكمن في إرادتنا ، ستطوى الطاوية إن عاجلاً أو آجلاً) .

في بداية الجرجرة ، ظللت مستعينًا بتطويحات يدي ، لكن استي ، لم تقوَ على تحمل المسألة ، استلقيت على ظهري ناهضًا رأسي قدر المستطاع ، لكنه لم يحتمل أكثر من خمس لفات . انقلبت على بطني فتطاير الحصى إلى وجهي . تذكرت لحظتها شعبًا امتهن الحجارة في بادرة غير مسبوقة بعصرنا المعاصر .

حين عاد لي وعيي ، اكتشفت الدماء متجمدة بأطرافي ، وثيابي ممزقة من

كل جانب . في اليوم الخامس ، أجلسوني بردهة منتهية بمدخل صغير ، حاولت أن ألتقط كلمات مبعثرة تصدر من البعض ... لكنني لم أستطع . إذ كانت فيما يبدو شفرات وإيماءات خفية ، كالتي كنت أسمعها بحضرة (الأولياء والصالحين) رفقة أمي رحمها الله . أعود للعادة ذاتها ، ولكن هذه المرة مع «أولياء» يملكون أكثر بركة بكثير !!! (انفجر الحضور بقهقهات عالية رغم حسرة الموقف ، فشعر الرجل بما يشبه الخجل) . بعد أربع ساعات من الانتظار الإجباري ، أدخلوني بغرفة مجهزة بتقنية عالية . أجلسوني على كرسي ، يبدو أنه مصنوع من النحاس . شدوني إليه بخيوط جلدية مطواعة حين انحنيت قليلاً ، لمحت سلكًا كهربائيًا غليظًا ففهمت مهمته على الفور . على مدخل الغرفة من الداخل ثمّة لوحة زجاجية مستطيلة ، مقسمة إلى أربع مربعات متساوية . اختفى النور ، ظللت منتظراً الحدث القادم . بدأت اللوحة الزجاجية تُظهر الأرقام متتالية وبعدٍ تنازلي . مبتدئة بالصفر ، لاحظت أنها تتوقف عند الرقم الثاني ، ثم تبدأ الكرّة من جديد ، كنت قد شاهدت حكاية الأرقام البادئة بالعدّ التنازلي من مشاهداتي التليفزيونية ، لإطلاق حاملة المركبات المتجهة للفضاء من قاعدة «كيب كندي» التي بناها أصدقاؤنا الأمريكان ، كما يسميهم تليفزيوننا طيب الذكر والسمعة . تعجبت كيف أن هذه التقنية العالية ، توجد بزنازيننا ولا توجد بمستشفياتنا أو مدارسنا . حركت قدمي بشقاوة طفل صغير على كرسي الحلاق . فهتف أحدهم بوجهي بعد أن دخل فجأة :

- يا حمار ، تلعب بقدميك وأنت على حافة الموت ؟ غاب النور من جديد ، وعادت اللوحة الزجاجية لممارسة لعبتها الجهنمية . هذه المرة بطيئة للغاية حتى أنها تستغرق في تبدلاتها الرقمية ، خمس دقائق على أقل تقدير . وبعد وقت قصير جاءني أحدهم وبادرني بلطمة قوية ، أعقبها

بأخرى على الأيسر ، في صباح اليوم السادس ، ألبسوني ثوبًا أحمر رسمت عليه بخطوط بيضاء الدورة الدموية ، ثم أخرجوني للباحة . مفرزة الإعدام تقف على أهبة الاستعداد ، عيونهم تفضي بقلقها واضطرابها ، أسندوني على عمود كهربائي مقتربًا من المفرزة وجهًا لوجه . حدقت فيهم واحداً واحداً ، فلم يقو أي منهم على أن يثبت نظرته في وجهي . صاح عسكري يقف بجوارهم بصوت جهور .

- مفرزة استعد :

تأهبوا بوضعية معينة ، رفعوا بنادقهم ، تناهى صوت قادم من جهة الإدارة . التفتُّ إليه ، لمحت عسكريًا يهرول بأقصى قوته تجاهنا . همس في أذن آمر المفرزة ، ثم قفل راجعًا ، تبدّل وجه الرجل ، ترنح كالثمل . فيما ظلت البنادق مصوّبة إليَّ . تأملت مواسيرها الصدئة ، فتذكرت قطعًا تئن الفقد والغياب . سبتة ومليلة ، أم الرشراش ، الإسكندرونة ، طنب الكبرى والصغرى ، ثم جاءني عسكري ليفك قيدي ، ويهمس في أذني :

- أنقذك نسيانهم للغطاء الأسود .

حمدت الله على ذهاب عقلهم دفعة واحدة . بعد الحادثة بيوم ، استطعت الفرار إلى هنا .

- ولكنك لم تروِ لنا السبب ؟

سأل الوهراني الذي بدا أكثر الحضور تيقظًا .

- آه . نعم ، نعم ، كنت جالسًا بمحل روائح ، أُديره بمفردي ، في زمن الإقفال ، يبدو أن صرصوراً قفز للداخل دون أن أنتبه إليه . في اليوم الثاني، وما أن فتحت المحل ، حتى قفز إلى بركة نتنة كونتها المجاري المسدودة . ودخل ورائي في لحظتها ، جمهور غفير من أصحاب المحلات المجاورة ، لشراء ما يطرد الرائحة الكريهة . وفجأة صاح أحدهم :

- أنت شو عملت في الصورة المُعلّقة ؟

- رفعت وجهي إليها ، تملكني شعور بالغضب والانفعال أو هكذا تظاهرت . قفزت وجذبتها دون أدنى تفكير ، في المساء وجدت قابلة البيت عربة في انتظاري .

تحرك الوهراني من مكانه ، مسح قطرات العرق المتفصدة بجبينه ، غمغم بصوت منكسر :

- هل سمعتم بوطن صار مفزعًا ؟ (تابع بعد تنهيدة تحمل دلالتها) : عشرات الألوف فروا بجلودهم ، بعد أن بات بقاؤهم مغامرة غير مأمونة العواقب .

- تدخلت قاطعًا التلميحات ، مفضيًا بلب المعضلة :

- يا جماعة ، غلطة الحكومة يدفع الناس ثمنها بأجسادهم ، بممارستها سلطة الإقصاء ، بعد أن فتحت الباب على مصراعيه .

- قرابة سبعين ألفًا ماتوا بغلطة لا تغتفر .

تابع الوهراني فيما يُحرِّك رأسه أسفًا ، تابعت الحكي :

- صوت الإقصاء صار لغة متبادلة ... بدأته الحكومة وأتمه الخصوم ... والضحية أطفال أبرياء ، ونساء ثكلى ، الغريب أن يتم ذلك بنمط مارسه المجاهدون أيام الاحتلال الفرنسي .

الوجوم وشبح الخوف على الوجوه . أحسست في جل الروايات التي سمعتها ، بقاسم مشترك يجمعها في بوتقة واحدة .

- يا جماعة ، انقلونا من المآسي للطرب والغُنى !! هتف سعيد مدمن القات ، ثم ترنم بأغنية يحبها :

«ياللي ساكنة العلالي   حوشي عنك بجمالك..»

نردد وراءه النغمة ذاتها ، نتمايل بهيئة مماثلة لما في الديوانيات لحظة

الإنشاد والتغني ، يقفز البعلبكي هو الآخر بالحلقة مترنمًا :

- عالطاحونة شفتك عالطاحونة   دوبوني عيونك دوبوني»

يضرب أحدهم آنية الغذاء ، بآلية تماثل الدبكة اللبنانية مما يزيد الطرب تأججًا . ثم يطربنا السي المنجي بلحن جميل :

- «يا جاري ، آه يا حموده [1]

يا حموده

ويا جاري دبر علي يمه

الناس اتبات اركودهْ [2]

اركودهْ

وأنا النوم حرّم علي يمه

ويا جاري ، آه يا حموده

ويا حموده!

وينفرج الباب كما العادة عند كل نغم يرتفع ، تتطلع وجوهنا إليه :

- أنت اتبعني .

حسبت أنه يُحمّلني مسئولية الإنشاد المسموع ، أسير بجواره في صمت مطبق ، الأبواب موصدة ، أتساءل في نفسي ، عن حال من وراءها :

- دعه يجلس بالردهة ، فالآمر مشغول .

يوجه سكرتير الآمر حديثه للقادم بي ، فيمثل للأمر . الردهة تبدو كأنها قطعة من قصر مشيد بفخامة بالغة . أتنتسب يا ربي هذه الردهة لزنزانتي المسيجة بالداخل بخرق تحيط بالمرحاض ؟ تساءلت بهذا السؤال في نفسي فيما عيوني معلقة بالحركة الدائمة كخلية نحل ، ولمدة ساعتين . حسبت

(١) أغنية تونسية .

(٢) نائمة .

أنهما أطول من ليلة شتوية بلا عـشاء . ثم أدخلوني عليه ، فلاحظت أن كل شيء فيه قد زاد عما كان عليه في مقابلتي السابقة السريعة :

- هه ، هل عرفت السر ؟

ولم أتكلم بشيء ، تـابع وهو يحـرك قلمـه ، أهنئك بقـبـول التوصـيـة المرفوعـة لسيادة الوزير ولـم يرد لنا بعـد أي شيء عنك من بلادك ، ويمكنك أن تعتبر نفسك طليقًا من اليوم ، ولكن بشرط مسبق . (رفعت وجهي إليه ، فلم يقو على الثبات بنظراته في مواجهـتي ، تابع - فيما يحـاول الانشغال بجملة من الأوراق أمامـه) : وهو شرط بسيط لا يكلف شيـئًا . ولكن ، قبل كل شيء ، ارو لنا حكاية السر الغريب . ابتسمت للطلب ، تذكرت لحظتها الطيب الراحل أو دم الأبنوس السائح في رحـاب الله ، ثم دمدمت بصوت مثـقل بالوجع : في زمن خروجنا للهـرولة ، سقط الرجل الطيب الأسـمر ، من فرط الإعياء ، طـلـب منا سجاننا أن ندوسه بأقدامنا ، امتـثل بعضنا للأمر أو هكذا تظاهر ، مخـففًا وطأة الـثقل دون أن يلمح السجـان شيئًـا . بعضنا رفض عـلانية . عـلال من بين الرافـضين ، أمره بالانبـطاح إلى جانبـه . في اللحظة ذاتهـا ، طار طربوشـه إلى بعـيـد . قَدَمُ أحـدهم تدخل فـيـه وتطبع الدوائر الغريبة .

ذهل الآمر للمفاجأة ، حتى أن لسانه توقف عن حركة معتادة . اعتذرت للنادل عن شرب القهوة . تعجبت من متناقضات السجن الغريب ... وحين هممت بالخروج ، مدَّ الآمر ثلاث ورقات . فهمت من قراءتها على عجل ، أنهـا ممزوجـة الوظيـفـة والأداء . فـهي بقـدر كـونهـا تصـريحًـا للخـروج والتجـوال ، فإنهـا ، في الوقت عينه ، تعهد بعدم المسـاس بالأمن وبالتعاون التام معهم !! ولأن المطلوب مني التوقيع . فقد ترددت كثيراً :

- لا عليك ، مافيهاش حاجة .

ولأني أعرف قدر نفسي جيداً ، فقد وقّعت . احتفظ بواحدة ودفع إليَّ الباقي . ثم دعا سكرتيره طالبًا تسهيل خروجي . مشيت وراءه على سجاد فاخر ، لم أر مثله إلاّ على ظهر البواخر مجلوبًا للقصور وحدها . دخلنا معًا مكتبًا تعبق فيه رائحة عرفتها على الفور . لاحظ السكرتير شرودي فسألني:

- هه ، ما بك . هل شدتك الرائحة ؟

- نعم . وأعرفها جيداً . إنها تشدني لواحد من أعزائي .

- ياه .

- بل وأكثر .

- تبغي معرفة اسمها ؟

- أعرفها .

- إيش اسمها إذاً ؟

وأتوقف عن الجواب ، إذ تهيمن عليَّ حالة من الحسرة والانقباض .

تابع متنهداً : على كلٍ تسمى رائحة الأبنوس .

- بل ، دم الأبنوس .

- إيش ؟

- قلت دم الأبنوس .

- إيش تعني ؟

تجاهلته وتشاغلت بفرك أصابعي ، فآثر - فيما يبدو - السلام ، وتخطى المعنى .

- على كلٍ ، هانحن عند وعدنا ، ولكن لدينا شرط سهل وصغير .

(أدركت قُبيل سماعه ، أنه يحاول الإيحاء بأهميته التي يعتقد أنها نظيرة للآمر ، ثم تابع) . وهو أن تتعاون معنا ، حفاظًا على الأمن والسلام .

(هززت رأسي ضاحكاً) ، ثم قلت :

- هل تريدني أن أعمل بصاصًا ؟
- يا رجل ، التعاون من أجل أن يعيش الناس في أمان ، لا يعتبر بصًا !
- كيف ، وأنتم ستقومون بجذبهم للزنازين ؟

لملم أوراق الملف ، ألقيت نظرة خاطفة على إحالاته العديدة . ثم نهضت بعده بتمهل ، وكأنني غير راغب المغادرة . توجهت لزنزانتي ، ناديت على أسماء أصحابي من تحت الباب ، بكوا للحظة الفراق المُرّة :

- يا حمار ، نطلق سراحك وتعود للانبطاح هنا ؟

أنهض وخيط الدم لا ينقطع من فمي ... أقدم ورقة الخروج للبوابة أجد نفسي بشارع عريض طويل ، ألتفت لمدخل المعتقل ، فلم ألمح ما يفيد بأنه كذلك . لم ألحظ بالطريق أي حركة تذكر ، اللهم إلاً زرافات من الكلاب الضالة ، والقطط التائهة على غير هدى ، تظهر وتختفي من حارة لأخرى . وكان السكون رهيبًا لا يقطعه إلاً مرور دوريات تمر بسرعة جنونية ، تعمدت عند سماع أي عربة من بعيد ، أن أختبئ بالأزقة . وحدث مرة أن مرت عربة اختبأت عنها ففرملت سريعًا ، حتى أن مقدمتها صدمت الحائط .

- إيش تعمل هنا ؟
- كنت قادمًا لشراء حاجتي الضرورية .
- ماتعرفش مواعيد منع التجوّل ؟

أدركت لحظتها أنني خرجت في زمن حرج ، فهل كان الآمر ينوي توريطي ؟ تظاهرت بالظهور في مظهر قريب للمعتوه ، حين مسحت سائل أنفي الأخضر بكم قميصي ، لمحت الراكب بجوار السائق يتقزّز من المشهد ويدفع السائق للمسير ، ظللت أسير مترنمًا بأغنيات قديمة حفظتها عن ظهر قلب ... حين تعبت جلست على صخرة عالية ، مكنتني من رؤية البحر بأجمعه . رأيت فيما يراه الصاحي ، الحي ، الخارج لتوّه من ظلمات الأقبية .

أربعة قوارب سريعة العدو تخلف وراءها خيوطًا بيضاء كالحرير ، ثم تفترق كل واحدة في اتجاه ، فتبدو كزهرة تبرعمت بتوّها . حين عدت للطريق العام، اكتشفت دبيب الحركة به ، لكنها تتسم بالعجلة والتسرُّع . سألت سائق التاكسي عن السر ، تنهّد بعمق ، رمقني بنظرة خاطفة ليعرف فيما إذا كنت جادًا في السؤال ، أم أنني مجرد واحد يلوك الكلام كيفما اتفق . قلت للرجل لأقطع عليه خيوط ظنونه :

- أنا غريب عن البلد .

جذب قميصه الطويل ، عدل دشداشته في مرآة الوسط :

- أخونا في الإسلام من وين ؟

- من أرض تجاورك .

- زين ... زين ، حيّاك الله ، أهلاً وسهلاً .

تتدافع قطرات ساخنة على جمع غادرته دون وداع ، حزن عميق يتملكني ويجعلني أحملق ولا أرى شيئًا .

- أخونا إيريد وين ؟

- عند الاقتراب سأقول لك .

ولم أكن أعرف أنني أقترب أو أبتعد ، كل ما في الأمر ، أن أبتعد عن السور الكبير للمكان التعيس . ويكبح السائق عربته فجأة حتى أنها مالت عن اتجاهها قليلاً ، إذ ظهر موكب أميري ، متجاوزًا الإشارة الضوئية الحمراء. ولم يعقب السائق على جملة استغراب اندفعت مني ، مفضلاً تتبع الموكب المندفع بنظرات أعرف أنها حزينة . وفهمت أن الخوف يعتمر الصدور ، ويلجم الأفواه بهذا البلد ... حين وصلت للفندق ، طلبوا مني جواز السفر ، لحظتها تذكرته ، وتعجبت كيف أنني نسيتُ أن أسأل عنه في المعتقل .

قلت : بالمعسكر .

رفضوا إعطائي غرفة . استدركت مُصححًا الخطأ .

- أقصد بمركز التأهيل والإصلاح .

تفرسوا في وجهي مليًا ، عدت ثانية للمعتقل بعد أن ثَبَّتُّ موقعه بعلامات دالة . ضربت الباب ففتح العسكري الذي سلمته الورقة ، مزلاج نافذة صغيرة :

- أريد مقابلة الآمر .

- أي آمر ؟

- آمر المعتقل .

- مافيش عندنا معتقل .

وتذكرت ثانية أنني أخطأت التسمية .

- أعني مؤسسة الإصلاح .

صمتَ قليلاً ، التفتَ للوراء :

- ولا حتى هذه عندنا .

- يا رجل ، أنا قبل قليل سلمتك ورقة الخروج .

- أنا ؟

- نعم ، أنت .

- أنت تُخرِّف .

ثم أقفل النافذة الصغيرة في وجهي . تعلّقت عيوني بالباب ، تعجبت كيف أنه مزخرف بزخرفة إسلامية تحيط بشعار الدولة بأسفله عبارة «ما شاء الله» !! ظللت أعيد كرَّة مسيري الأولى . بحثت عن الصخرة فلم أتبيّن موقعها . أسير على غير هدى ضاربًا قطع الحجارة المرمية بلا اهتمام ، المتكلمة بردّة فعل لم أنتبه لها . أجلس تحت شجرة وارفة الظل ، فينهرني رجل بدين شبيه بآمر المعتقل . عرفت فيما بعد ، أنه مكلّف بحراسة عمارة ،

مخصصة لأفراد حراسة شخصية مرموقة في الدولة ... وتشدني محاورة عالية ببناية مجاورة ، بين من يبدو أنه تاجر جملة ، وبين صاحب شركة للبناء . استطعت أن أركّز على جملة قالها صاحب المتجر ، مفادها ، أن تكلفة رفع وإنزال الأسمنت ، مرتفعة هذه الأيام . ووجدتني أهتف له :

- بل رخصية .

- رخيصة ؟

- نعم .

- كيف ، يا سبحان الله ، وهم يبغون ثلاث دولارات للكيس الواحد ؟

- أعطني نصف المبلغ وأنا أتكفل بالمهمة .

- اتفقنا .

رد صاحب الشركة فوراً .

خُيّل لي أنه يهمّ بسؤالي ، لولا دخول مجموعة من الناس للمتجر دفعة واحدة ثم تابع :

- في السابعة جَيبْ عمالك ؟

- أدهشنى الردّ ، ثم وجدتنى أُدمدم : زين ... زين .

أتابع السير بالرصيف ، وحين لا أجد أحداً ، أتآلف مع برميل القمامة ، أهرش البقية المتبقية من بطيخة طرية ، لأول مرة أسمع ما تبقى من أسناني يمارس دوراً مفقوداً ... أتمدد بظل حائط ، سمحت لي شقوقه بسماع لهاث متقطع الأنفاس :

- يا رجل ما تلعبش على صدري .

- هو مش للفسحة !!

وضحكتْ ضحكة عالية ، أعقبتها بآهة لم أسمع مثلها .

سرحت مع أحلام التمني الكبرى والصغرى ، لكني لم أقبض إلاَّ

الريح . تمامًا كسمسار البغال ، لا لحم يجنيه ، ولا ريحًا طيبة يشمها !!
وكاد الموعد يفلت مني .

- وين أنت يا رجل ؟

كدت أقول له كل شيء ، لكنني خشيت ضياع الصفقة .

- وين عمالك ؟

- عمالي ؟ عفوًا ، في الواقع (تطلّعت للوجوه الحاضرة فلمحتها تنتظر جوابي) عرجت عليهم فلم أجدهم . وعلى كلٍ (جذبته من كتفه بعيدًا ، وهمست له) أنا لا عمال ولا عمل لي ، ومأساتي طويلة جدًا ، وسأتكفّل بالمسألة وحدي .

- لوحدك !!

- نعم .

- لوحدك قادر على شيل ١٠٠٠ كيس من الأسمنت ؟

- سأحاول .

صمت الرجل حائرًا ، اتصل بشركته لإبلاغهم عن تأخر الأسمنت إلى الصباح . بدأت في تشييد سلّم مُتدرِّج من الأكياس . وفي فترة من فترات الراحة ، فوجئت بخفير المتجر يأتي لي بعشائه :

- الأخ من وين ؟

- من بلاد تجاورك .

- بترول كالبحر ، وتشتغل عامل ؟ أول مرة أسمع وأشوف واحد منها يعمل خارجها .

ولم أجبه بشيء ، تلقفت لقمات ساخنة ، مقطوفة ، متعجلة ، وعدت للأكياس . بعد أول مائة كيس ، شعرت بدوار خفيف يلعب برأسي . أستند على حائط الأكياس المرصوصة . تنقلب أرضًا ، تتناثر جزئيات

أسمنت ظلت محبوسة غصبًا عنها . وجدتْ في متسع الفضاء ضالتها المنشودة . فمن يمل إطلاق قيده ؟

- بغل ابن بغل .

خُيِّل لي أن الكلمات تتناثر على وجهي المنكفئ ، لم أقدر تبيّن محدثي ، وإن كانت النغمات قريبة لنغمات صاحب الأسمنت .

شعرت بجسدي يزحف حثيثًا كانسًا شوائب الأرض بأجمعها . تبيّن لي أن قدمي مرفوعة مشدودة بالسحب ، لفحتني ضربات البرد القارسة ، أحسستها بوجنتي كوخزات إبرية وإن لم يسل الدم . أتدحرج للناصية ، أستقيم على استقامتها ، وأتوسد ذراعي غير عابئ بعواء القطط ونباح كلاب تتقافز في حبور ظاهر .

في الهزع الأخير من الليل ، أحس بلدونة في قدمي . رفعت وجهي ، تبيّنت بصعوبة بالغة كلبًا كوجه الليل . نفضت قدمي في الهواء ، ابتعد الكلب وعدت لممارسة الشخير ثانية .

بعد مُضي وقت لم أعرف مقداره ، ربما يكون ألف سنة مما تعدون ، يد تلاطف وجنتي ، حسبتها لسان كلب ، فتحت عيني بنصف نظرة . لم أتبيّن تفاصيل الكتلة السوداء المنحنية عليَّ . لكن صوتها يفصح عنها ... أنهض بتثاقل ، أسير وراءه ، ألمح الأكياس أو عرقي المسكوب بالمجان حتى الآن . أتمدد على سرير مجاور ، فراشه مهترئ وكأن قططًا فزعت لتوّها من اللعب فيه بمخالبها . يناولني بطانية يذكرني لونها ، بلون كانت أمي رحمها الله حريصة عليه في كل مناسبة :

- بكره ، نيجي لمساعدتك .. ولا يهمك في أحد .

قال الرجل غفير المتجر الذي يبدو أنه جرّب الأهوال كثيراً . في انبلاج الفجر ، أستيقظ على نباح مُلحٍّ لكلب شرس . تطلعت من النافذة فرأيت

كلبـة .. تتمنع من الاقـتراب منه ، فـيمـا يعـاند سلسلة حديدية ، ثم جـئت بعامل اختـرت فيه ضـخامة الجثـة ، تردد في باديء الأمر ... ظلت خطواته مشوبة بالحذر والتيقُّظ . اكـتشفت فيه نُبلاً وتفانيًا حقيـقيًا للعمل ، حمسني لأن أنافسه قدر المستطاع ، في فترة الراحة سألني :

- غريبة ، أنت من البلد دي ؟

وكان يشير بيده ناحيتها . أومأت له بالإيجاب ، عندها توقف عن الأكل وسألني ثانية في همس :

- يا رجل أنتم كلكم بترول .

ضحكت رغم الوجع ، ثـم سردت له مخـتصر سيـرتي في همس مماثل لهمسه . أنجزنا المهمة في المسـاء ، رغم تهديدات تاجر الجملة بجلب عمالة أخرى أكثر نشاطًا وأقوى قوة ، كمـا عبر عنها !! عند سداد الثمن ، خصم الرجل تكلفـة الأكيـاس الممزقـة من أجرتنا ، رغم أننا قـمنا بتكيـيسهـا في أكياس فارغة !!

سكوتنا شجعه لأن يتناسى كل ما كان ويعرض علينا العمل بأجر «مُغر» رغم أنه في واقع الحال زهيـد جداً . لبسنا ثوبًا أحمـر شبيهًـا بثوب المحكوم عليهم بالإعـدام وهـل بقـى لنا إعـدام آخر ؟

كان الثـوب مزركـشًا بدعايـات شتى ورغم فهـمي لحقـيقة المـعنى فوق ظهري ، فقد آثرت الصمت ، ذات مرة سألني رفيقي العامل الصعيدي :

- أقولك شيء ، ماتزعلش منه ؟

- وهل هذا كلام يا رجل ، كيف «أزعل» ؟

- عندكم أكل حق العامل ، زي السلام عليكم .

وعرفت أن الرجل ، ملسوع من جهابذة الأموال .

- ولم لا يشتكي العامل ؟

ضحك الرجل ساخراً وتمتم بما يشبه التأكيد :

- رب العمل ، يِظَبَّطْ احباله مع كل الجهات .

(ثم تابع متـذكراً) مرة صرخ رجل أكلـوا حقه . مشي للشـرطة ، أذاقوه مرارة الحنظل ، مشي للقضاء ، فطالبوه بشهود من أهل البلد فقط !!

ظللت لوحدي ، بعـد أن اعتذر الصـعيدي عن مـواصلة عمله بالمكان . الغريب أنهم امتنعوا عن إعطائه أجرته إلى آخر الشهر الثاني ، فاضطررت أن أسدد له مـا يكفي حاجـته . وفي ذات صـباح يقف عليَّ شـرطي مراقـبة التـسعـيـرة . وحين يكتـشف - أو هكـذا يتظاهر - بأنني لسـت من البلد يقتادني من رقبتي لمخفر الشرطة :

- ولكنني محتاج .

- الاحتياج يرجعك لبلدك .

- أليست هذه بلدي .

- لا .

- أعطوني جواز سفري إذاً .

- وين هو ؟

- عندكم .

وأشرت باتجاه اعتقالي .

- مالناش علاقة بحد .

- ولكن ، المصب واحد .

- ماليكش دعوة .

وأحسست بأنني أحرث في البحر . فالتزمت الصمت .

ثم جاءني تاجر الجملة ، رب العمل . لينكر معرفته بي ، ذهلت للخبر ، صرخت في وجهه بالحقيقة ، فتجاهل مجرد النظر إليَّ .

- لكني وجدته بالمحل .

تكلم شرطي التسعيرة ، مُحتجًا .

- ممكن يكون زبون .

ردّ تاجر الجملة بتأكيد كاذب .

ووجدتني في مهب الريح ، لا أحد بجواري سوى غبار الشارع الصاعد للسماء . وأنا المسكين الكامن في أرض خيبتي وانكساري ... الطاعن في مثاليتي ... القائم على وجه لا يعرف ملتويات الطرق وانحناءات الخفاء .

وفيما كنت أتسكع بخوائي ، لمحت شرطي التسعيرة فى السيارة إلى جوار رب العمل ، يقهقه في حبور ظاهر .

عدت لصديقي من جديد ، استندت على الناصية ، ممنيًا نفسي - ولو بالحلم - بشيء جميل . كوجبة لا أجوع بعدها أبداً :

- أنت ، اسمع .

دعكت عيني ، عليَّ أعرف جيداً الصوت القادم من بطن التمني .

- هه ، أنت .

هززت رأسي بهزات متتالية .

ابتسمتْ ، طأطأتْ رأسها ، علّقتُ وجهي إليها فلمحتُ التأني ... مسحتْ بأطراف أناملها غباراً عالقًا بأهدابي ... عامت بالأخرى في لجّة شعري . خُيّل لي في مسافة القدوم بأن اللدونة تتشبث بسيقان الشعيرات التي يبدو أنها تجيد اللغة المثلى .

- أي قدر قدرك ؟

- كما ترينه .

- أووه ، هذا قدر محبب .

- أو تصيغين حروف الحقيقة ؟

- ومن يجيدها غيرنا ؟

- هم .

- لا تسمع هراءهم .

- لكنهم كظلك .

- كظل أنفسهم .

وتمسح بيدها كتلة أسمنتية تيبّست بالعرق على ثوبي . فأي قدر قذف بها لشاطئ جف منذ زمن بعيد ؟ ثم تتابع : يبدو أنك من جهة تدر الوفير ؟

- الوفير ؟

- نعم .

- علينا أم عليهم ؟

- عليهم ، وإن تبقى شيء فعليكم ! !

وتفهم من هزات الظل الجواب ، فلا أبلغ من أن يكون الكلام ، كلامًا بغير الكلام . وأسير بمحاذاتها ، فتردد إيقاعاتنا نشيدًا واحدًا وبوقع لا يثير إلاّ الشجن . وأسرد عليها بعضًا من سيرة أيامي ، واعدًا بالبقية المتبقية .

وأحس بخجل حين تجرني لمحل لتغير أسمالي البالية . فأصير غير الذي كنت ، أمشي بخيلاء ، فلا أجيدها ... تختلط عليّ الخطوات ... فيضيع مني أولها وآخرها ، أصير بلا خطوات ثابتة . أقفز كالضفدعة ، أتمايل كالثمل ، فما الذي يجري بأرض يقيني ومثاليتي التي كنت أراهن على ثباتها ؟ أفيدوني أفادكم الله ، بما تجمع عندكم من الحضرة أو الطريقة «العلنية» التي يرفع أصحابها شارة التميز ، وتستطيع بها الوثوب على رءوسهم فيما لو كانوا بجمع شبيه بيوم الحشر. أو بما تجمع لديكم من الحضرة «الخفية» التي تظل شاراتها كامنة في مكامنها الآمنة ، مصونة ، لا يمسها إنس ولا جان ، ومتى عُرفت وشاعت لغير أتباعها ، فإن شارة من

شارات ذبولها ونهايتها قد لاحت فـي الأفق .

ونصل لسلّم صاعد ، أخطو مدارجه ، دون أن أدري أكنت أحصي ثقل البـرهة ... أم شدوها ؟ في آخـر السلم ، ثمّـة امرأة حـيزوبونيـة ، تنتظرنا . ترحب بي ، تجذبني قبل أن تفك يد السلام .

أحس بيـدها صلبة ، خشنة كعـظام الجمل ، أطل على صـالون يطارح البسيطة في امتداد بسيط ، يشـدني لونه الأبيض ، المماثل لبيـاض الحائط . وفوق كل اعتبار .. بياض القلوب الطيبة للجزر المتناثرة هنا وهناك .

أجـرع القـهـوة في مـرة واحـدة . أتطلع مليّـا لصـور مـتبـاينة الألوان والأحجـام ، أقف إليها فتحكي صاحبتي سيرة حضورها :

- هذه تخص جدى لأبي ، كان عنيداً كشيب رأسه ، إن أصر على شيء فلابد منـه ، قـاوم الاحتلال جـهاراً نهاراً ، وكلمـا دخل السجن اشتـد عود المناوءة لـدى الناس وحـين أحسـوا بأنهم بـحبسـه يدعـمـون الزاد الـلاّزم لإشعـال الفتيـل ، تركوه مكتفين بمراقبـته عن بعد . وهذه للشيخ عبد القادر الجـزائـري ، فـي منفـاه . ألا تلاحـظ الشرر يتطـاير من عيـنيـه ؟ ألا تكفي هذه الصورة ، عن عشرات البيانات اللاّهبة ... العلنية منها والسرية ؟

وهذه لعبـد الناصر بعـوده الصلد ، يوم أن ظن المساكين أنه سـينكسر أو سينحني بأقل تقـدير . كان علامـة فارقة في الزمن ... قـدّمه النيل فى دورة من دورات دفعاته المستمرة . أما هذه الصورة فسأترك لذاكرتك تتذكرها .

خُـيِّل لي أنني رأيتـها أكـثـر من مرة فـهل كـانت مذيعـة في التلفـزيون ألبسوها لباسًا مموّهًا بمناسبة إعلان حالة الطوارئ ؟!! أم أنها ممثلة صـوِّرت لحظة دورها ببطولة من بطولاتنا «المُعلّبـة بوزارات الإعلام» ؟ (١)

حيث عجزتُ ، جذبتني صاحبتي قبالة الفيديو ، فرأيت صاحبة الصورة

(١) من نص لنزار قباني .

بشحمها ولحمها ، تتكلم بكلام ما عدت أسمعه منذ زمن مضى . كلام صار في عداد الحكي المنتهى عند بعضنا ، والمنهي عنه عند بعضنا الآخر ... حكي يجلب الشقاء ، يُنكِّد العيش أو هكذا يصفونه دعاة الركون للعيش السهل الرغد .

وفجأة ، تمضي على ختام الكلام باسمها متباعداً ، بطيئًا ، وكأنها تلقي علينا بأمانة تتميمه ، وتتميم مهمتها الغالية : «سناء محيدلي» .

وأتعلق بها ، أعيد الشريط المرة تلو المرة . ولا أملٌ الجنوب المرسوم على جبينها العريض ، فأي فتاة تسطر المجد بدم يختلط بشظايا العظم واللحم ؟ أي قربان يغادر طواعية لهو الميسر ... وحب «البانجو» ... وهزات الروك ... وتسريحات الموضة ، في إحياء عتيق لمجد تليد ؟!! وأتوقف عن مد يدي لأصناف لا أعرفها . تصير لحظتي برهة مجزأة من الفعل ذاته .

وكأني بها تستأذننا الرحيل ، فأي نقطة نحن في لجّتها العاصفة ؟ ولا أدري كيف صرت منتشيًا بنشوة الثأر والتشفّي من غليل يؤرقني كلما تذكرته . جند سيناء ... وقاطنو صبرا وشتاتيلا ... الحُرّاس التونسيون الأبرياء لأبي نضال ... شهداء فردان ... إقليم التفاح ... الجولان ... أطفال شوارع طرابلس وبنغازي ... وملجأ العامرية ... وأتذكر بهم وهمًا خادعًا تخدعنا به وسائط إعلامنا حين تردد علينا ((جيش الدفاع الإسرائيلي)) .

وتأتي أمها بإبريق الماء ، أشكر صنيعها الجميل ، تسألني عن وظيفتي ، فأحس بحرج للغاية ، هل أكذب عليها وأدّعي صلتي بوظيفة لم أدخلها ولو في الحلم ؟ أم سأروي سيرة عطبي الطويلة بلا انتهاء ؟ . وتنقذني ابنتها ، وإن تجاوزت الحقيقة :

- هذا شاب سائح التقيت به عند المتحف .

هل كانت تهرب بي من عين الحقيقة المُرّة ؟ أم أنها لا تريد أن تضيف للمسكينة كدراً إضافيًا ، على كدرها المتراكم منذ سنين لن تتم ؟ أي معادلة يودون أن نكونها ، وكل المعادلات لا تعرف التكافؤ إلاّ مع نهرهم دائم الجريان .

بعد غفوة القيلولة التي حُرمت منها لزمن طويل ، تأخذني للسوق ، نعبر الجزيرة إلى أخرى بقارب صغير . كانت عضلات التجديف تدفع المركب بإصرار يقيني ، فيما نظراتي إلى بطن الحوت الذي بدأ يتلألأ في الشمس كقطع فضيّة لامعة . ثم ينقلني سوق البسطاء ... لبسطاء قريتي وسوقهم الجميل في زمن غابر . ألمح حميراً وبغالاً معروضة كالأغنام ، ويشدني من بين أشياء كثيرة حمار يشبه ما كانت أمي رحمها الله ، تنقلني عليه للتداوي فيما كان أترابي يضحكون على قدمي التي تتدلى تحته حتى تكاد تصل للأرض !! البخور شبيه ببخور خالتي ، التين الأبيض لايزال مذاقه بفمي ، والذي عاش بعد معاندة ومصارعة للرمال المتحركة . وأتمنى أن أشبك يدي بيدها فهل تطاوعني نجوى الفؤاد. بعد صحبة صحبتني فيها بين أروقة التاريخ ... وروائحها تتغلب على التاريخ ذاته . ولا أدري ما الذي جعلني أتذكر فردوسًا مفقوداً ، جعله الآخر ذكرى لنا حين تطوع باستنكاف ظاهر ، وحدد جلسة «مدريد» للسلام ، لتصادف ذكرى مرور خمسمائة عام بالتمام والكمال ، على خروج آخر واحد منّا من الأندلس ، بالمصادفة القدر ... ويا لفطنة الآخر ، بيوم حزين يجرجره لنا ليزيد من وطأة الثقلين . ثقل الغياب ... وثقل التغييب .

- أنت بُعد غير كل الأبعاد .

- وأنت ود غير كل الود .

تضمني إليها ، أشعر بقشعريرة تنتابني ، أستسلم طائعًا للحظة الخدر ، عرجنا على سوق الذهب ، سياراتهم تبدو أمام محلاتهم وكأنها في معرض لأحدث الموديلات ، وجوههم حمراء ، غضةً ، ثيابهم نظيفة لامعة.

- كم وزن هذا الخاتم ؟

يزنه مترنمًا بالبسملة :

- ثلاثة جرامات إلاَّ ثلاثة ملجم . (تابع بعد أن تحنحن) عليٌّ الطلاق اشتريته على أساس ثلاثة جرامات كاملة .

ويربط بيته بتجارته ، فهل يحتم الأمر التداخل وخلط رمضان بشعبان ؟ ثم انزوينا ناحية محل هاتف عمومي .

- ألو .

- .....

- أريد هاتف دائرة الإصلاح العاشرة .

تعجبت من تعدد دوائر الإصلاح ، بجزر صغيرة مبعثرة هنا وهناك ... ثم فصلتْ المكالمة ، وبدأت في إدارة الرقم بعد حصولها عليه من دائرة الاستعلام ، لكن صاحب الهاتف فصل الحرارة ، هاتفًا في وجهها :

- ثمن المكالمة الأولى أولاً .

تسدد ما يطلبه ، تدير رقم الدائرة :

- ألو .

- .....

- هل يمكنني أن أحادث الآمر ؟

- .....

- قل له فتاة تود مخاطبتك .

- .....

- أهلاً .

- .....

- أود أن أحدثك في أمر نزيل سابق عندكم .

- .....

- أعرف أنه خرج ، وأنا قلت لك نزيل سابق .

وفهمت من الحوار أن الآمر أجوف من بالوعة المواسير !!

- .....

- الأمر يتصل بتسليمه جواز سفره .

- .....

- وماذا سيعمل به الوزير .

- .....

- شكراً ، سأتصل بك مرة أخرى .

ونسير بفضاء لا دبيب فيه لقدم إنسان ، تسألني :

- أنت دائم الشرود .

- شرودي في عدد سمعته ...

- هل يؤرقك ؟

وضحكت من سؤال تعرف جوابه مسبقًا . نصل لناصية الطريق ، تعرج بي على مكتبة ، ظننتها مكتبة جامعية ، تهت في العناوين الجذابة . عشرات من المجلدات تتمحور حول الموضوع الواحد . ويشدني عنوان ((سيرة أهل الغزل ... والعزل)) فأقرأ سرداً بأسماء تدير الرعب ، «بول بوت جزار كمبوديا الرهيب ... جاراديتش صربيا حفار القبور ... بونيشيه الذي كان يُعلِّق المشانق كما يُعلِّق ميدالياته ... موسوليني الحاصد لزرع زرعته يداه» ... ثم لمحت كتابًا يحكي عن صيانة التليفزيون فتذكرت أننا

شعب لا يعرف «الإصلاح» بل الرمي وإحضار الجديد . كما تذكرت بالتليفزيون ، تخصيصه لثلث زمن الأخبار للعائلة ... ونعبر شارعًا مكتظًا إلى آخر بدت فيه الحركة قليلة إلى حد ما :

- ما رأيك في عرض هذا المساء ، بالسينما ؟ تسألني فيما تتطلع لتفاصيل لوحة فوتوغرافية ، بدا فيها أحد رعاة البقر مصوبًا مسدسه تجاه جمع من الهنود الحُمر مع صورة بروتريه في الجانب الأيمن لسيدة هندية حمراء ، وجهها مُتجهِّم معفَّر بالتراب . أثارني إخراج المُلصق بطريقة مستفزّة أكدها عنوان الفيلم «انتقام» بخط عريض مُتقطّع يميل للون الدم .

عند الدخول أحسست بقدمي تكاد تغوص بين بقايا كل شيء ، قشور «اللب» (١) ، علب السجائر الفارغة ، أعقابها ، ورق «الكلينكس» :

- هل هذه لقطاع عام أم خاص ؟

- لقطاع عام .

تبدأ الشاشة بتقديم لقطات تتصل بعمليات مثيرة . أميل لصاحبتي متسائلاً :

- ألا تلاحظين نمطًا بعينه في التقديم ؟

تصمت محاولة استرجاع الذاكرة .. فألحق الجواب للسؤال : أعني توقظ فيَّ أشياء حقيقية . وفجأة تنقطع الكهرباء فيعلو دوي الهرج والصفير أرجاء المكان .

- شغّل موتور الاحتياط .

- خيوطه مقطوعة .

- مين قطعها ؟

- مانعرفش .

---

(١) حبوب غلّة (القرع) .

- أنت ماتعرفش حتى عشاءك امبارح !!

- أنت بتحاسبني ؟

- أنا أقول الحقيقة .

- ومين طلبها منك ؟

- الظلام اللي شايفه .

ويشتد الكلام ، يعلو ، فتعلو معه الأيدي متشابكة في الظلام . فيما بعضهم يصب النار على الزيت ، كعادة من عادات فاعلي الخير ... ويعود تيار الكهرباء فيُصفِّق الحضور ، تمامًا كما يُصفِّق التليفزيون لعودة ((مُنقذ الأمة وجالي الغُمّة عند عودته بسلامة الله إلى أرض الوطن ، بعد أن قضى فترة استجمام علاجية بسويسرا)) كما اعتاد أن ينطقها على مسامعنا ، مع أنه كان بمنتجعه هناك ، هل لاحظتم كذب المُحرِّر في عيون المذيع ، حيث يُزيغ بصره عن مواجهة الناس ؟

ويبدأ العرض بتقديم مُثير فتبدأ شخصية اليانكي بعيدة ، ثم تقترب شيئًا فشيئًا لتتلفّظ بما يوحي ويوهم المُتلقّي بأن مكمن القوة ، وبالتالي النصر ، لا يوجد عند غيرهم . ثم يذوب الوجه في الشاشة .

وجوه تغلب عليها تقاسيم الكرب ، تمارس انحناءها وارتفاعها القسري ككل يوم لحرث البسيطة ، وفجأة يتوقف وجه منها مُتأملاً ، يهتف لأصحابه بصوت جهور :

- الشياطين قادمة .

تتدافع الوجوه المسكينة لحلها الوحيد ، جراب ونبال وأقواس . تتمركز مستترة بكتل جرانيتية صلدة . تنفرج الأشجار عن وجوه حمراء ، سيئة الذكر والسمعة ... يبالغ المشهد في شطارتها المفبركة ، حين يظهر واحد منها وهو يهمّ لتفادي سهم قادم إليه !! وتنكفئ الوجوه الهندية وجهًا بعد

وجه أو هكذا أريد لها . فيعلو بالصالة صفير الغبـاء تأييداً لنصر اليانكيين ... ثم مشهد مهيب ، بدت فيه جثث الهنود مبعثرة بالأرجاء تحرك الريح الريش الدائر على رءوسهم والمصبوغ بلون أحمر قاتم . وكذا مشهد جرجرتهم فيما غبار الخيول يحول دون رؤية تفاصيل المشهد ، يتوقف كوكب الجرجرة ، يتململ فوق ظهور خيولهم ، يتبادلون نظرات الحيرة والتساؤل :

- هه ، أنستكم نشوة الخمر أم النصر ؟

تدور نظرات التساؤل والتخمين ثانية . يتابع المتسائل :

- أين فرناندو ؟ وطومسون ؟

ويأتي الجواب من مشهدين آخرين ، فرس تنقل واحداً ميتًا ، تتوقف بين الفينة والأخرى ، وكأنها تستطلع المكان ، وأخرى ، تُدوّر على صاحبها المُمدد أرضًا ، تبتعد عنه وتقترب ضاربة الأرض بقدميها ...

***

الفصل الرابع

تفريخ العهر... والولد صومالياً

وأغيب بعيداً ... قريبًا ... بشقة مفروشة مفرودة بأمكنتنا العربية ... قائمة ، مُعطّرة ، كاشفة عن ما وراء الوراء ... عن تائهات وراء نزوات العبور ، التحصيل الحاصل لخجل حتى الخدش . تدخل واحدة فارعة الطول عريضة المنكبين ، سمراء البشرة ، فاحمة الشعر ، التفت لمجاورتي :

- أيعقل أن تسلك واحدة كهذه هذا الدرب ...

- تبتسم مليكة ، ثم تدمدم بصوت مُتهدّج :

أعيش هروبي ليلاً ونهاراً .. ولا تراني إلاً هاربة ليل نهار . أحيانًا ، تسير بي قدمي ، فأجد نفسي بمكان لا أعرف كيف وصلت إليه .

(تتنهّد بعمق ، تكسوها مسحة من القلق والكآبة ، تنهمر على وجنتيها دمعتان ساخنتان . تضمها مجاورتي ماسحة ماءها المالح ، تُجاهد بمغالبة انفعالها وتأثرها ، تتابع بصوت متقطع الأنفاس) : دخل أخي في شراكة تجارية ، مع خليجي واسع الثراء رغم أن أخي لا يملك إلاً جلبابه ! قدم به ذات مرّة لبيتنا ، ومن يومها ظل يتردد علينا بمناسبة أو بدونها ، وفي كل مرّة يُكلّف نفسه أحمالاً تثير الدهشة والتساؤل . إلى أن جاء يوم ، رأيت فيه أبي محاصراً بأكداس الهدايا والعطايا من كل حجم ونوع . سألته عن ما أراه ، صمت دافنًا رأسه في كوم الهدايا ، أعدت عليه الكرةً فلم يجب

بشيء . عندها قلت بلهجة هادئة : أأنت ترى سعادتي في هذه الأشياء يا أبي ؟ فرد بصوت خفيض حزين . تذكرت لحظتها ما كان يقوله لأمي ، كلما تقدَّم واحد لخطبة إحدى أخواتي . في اليوم الثاني من (إحضار كل شيء) كما تقول أمي في وصفها للمسألة ، عاد في موعده المعتاد . فنادت عليَّ أمي هاتفة :

- سلمي على فارس أحلامك .

تعجبت كيف تتقن أمي أقوال البنات المراهقات ! ربما كان التليفزيون ، وربما كانت حكايات بنات الجيران ، سببًا في فهمها لكلمات كالتي أسمعها .

طأطأت رأسي خجلاً ، وحين رفعت وجهي إليه ، رأيته مجهداً ، كما لو أنه خارج من سباق محموم . لملم أطراف جلبابه ، وعدَّل (دشداشته) . محاولاً أن يهرب من نظرات المجابهة :

- أي بالله يا طويلة العمر ، إيش تبغين بعد شل[1] اللي ترين ؟

- ولم أُجب بشيء ، مواصلة تفرسي فيه .

- هه ، اطلبي طلباتك ..

تقول أمي منقذة الرجل من حرج اللحظة .

- زين ... زين ... الصباح باشر[2] ، أشوف الحلوة إشلون تبغين ؟

يرد على أمي أو هكذا يتظاهر لحظة خروجه ، تودعه إلى آخر الباب بعادة لم تعتدها مع أولادها . تعود وتنهرني بغلاظة :

- يا بنت الكلب .

---

(١) كل .

(٢) مبكراً .

في اليوم التالي ، لم أعر له أي اهتمام يذكر . حتى أني رفضت فتح الباب رغم إلحاح أمي ، توجهت لأبي بحجرة منامته قبيل أن يأتي له بالصالون :

- يا أبي ، الرجل متزوج ، ويرغب في تسريح ثلاث خيول دفعة واحدة .

أطرق رأسه بالأرض قليلاً ، ثم رفع إليّ وجهه المثقل بسنين لم تنته بعد، قائلاً في صوت كئيب مثقل :

- يستر الله يا بنتي .

ثم رأيت الثرى .. يرمقني بنظرة تحمل دلالتها . وأسمع هدير أمي شبيهًا بسفن الموانئ :

- يا مليكة ، يهديك الله ، اركبي معنا في مشوار قريب .

فهمت لحظتها ، أن الذهاب دبّر في لحظات معدودة ، تمنعت قليلاً ، لكن الإلحاح من كل جانب ، جعلني أرى وجهي بمرآه عربته . صوت فيروز ساكنة الليل ، يشقيني بأسئلة صديقاتي التي إخالها تنهمر عليّ كمطر أطلس :

- هو في عمر أبيك يا بنت الحلال ؟

- يا ليتك عاشرتي أعمى !!

- يا بنات ، البنت تخوض تجربة سمعت عنها كثيراً .

وأهرب من أصوات تحاصرني ، لكن فرملة سيارته كانت أسرع من قفزة نويتها :

- شيف هالشلام [١] ؟

---

(١) كيف هالكلام .

صرخ محتجًا ، زبده يتناثر في كل اتجاه . عيونه تتوّعد بيوم كشعر رأسه. في اليوم الموعود ، امتلأ الشارع حتى آخره بطابور الكراسي . السيارات من كل لون بكبيرها وصغيرها . جلست بجانبه ، الزغاريد كنقيق الضفادع ، أمي ترقص على قدم واحدة ، وكل منهن تجاهد في رفع دقات طبولها طمعًا في ارتفاع التحصيل ... تعجبت كيف أنني رأيت إخواتي وأخوتي في أزياء جديدة لم أسمع بها . لحظتها عرفت أنني مغيبة عن أشياء كثيرة ، نزلنا وسط طابور من الشموع ، بعض الرجال ينحنون إلينا «ففهمت أن الناس تنحني أيضًا ، لسلطة المال ، منذ لحظة إغلاق الباب عليَّ لأول مرّة ، وهو يعاملني بغلاظة لا نظير لها ، أمضيت شهري الأول على مضض . ثم عدت لبيتي وأخبرت أهلي بكل ما يقال ... وما لا يقال ... أبي تشاغل عني بأشياء كثيرة ... وأمي تجاهلت كلامي وكأنه لا يمت للحقيقة بصلة . ثم انفجرتْ في وجهي بغضبة لا تنسى :

- أنت ناوية تقعدي قُدّام وجهي وبس ؟

تدخل علينا فتاة يبدو أنها جديدة على الشقق المفروشة . رفعت رداءها الطويل ، وقاطعت المتكلمة بقول ينُم على أنها كانت تسمع الحديث :

- يا سبحان الله ، ماتماش [(١)] حتى فرق بين حكايتك ، وحكايتي .

- أي ... أي ... اتركوا البنت بتحكي عالزول .

تتدخل سمراء شدتها الرواية ، تتابع مليكة : فجأة دخل علينا مزمجراً كثور طائش :

- اشلون تمسشوها [(٢)] ؟ هي مش مضروبة ولا مشتومة .

ارتعدت أمي ... ارتبك أبي ، فقلت له بحدّة :

---

(١) لا يوجد .

(٢) تمسكوها .

- لن أرجع ، ولو نزلت السماء على الأرض .

لحظتها ، أدخل يده في قميصه الأبيض الطويل ، ورمى لي بورقة انتظرتها بفارغ الصبر ، ثم ارتد عائداً من حيث أتى ... تتدخل واحدة قدمت منذ قليل ، قاطعة الطرق على من سبقنها في الحضور :

- حكايتي آني ، تبدأ ببدء لا لزوم له ، بيوم اشتعال فتيل لم ينطفئ... بعد شهرين من زواجنا ، ذهب لقلب الفتيل ... كنت أُمنّي نفسي بعودته بين كل عشية وضحاها .

حتى أنني كنت بين لحظة وأخرى أستطلع الطريق المؤدي لعشنا المتهالك . وفي يوم لاينسى ، قدم علينا أحد أقاربه ، ممن كانوا معه . وجهه مُتجهّم ، عيونه غائرة ، سألته :

- هل مات ؟

دفن رأسه دون أن يرد . أعدت عليه السؤال فأومأ لي بشارة ذهابه إلى بعيد ، أطلقت لحظتها صرخة مدوية ، ثم غبت عن الوعي ، بعد انقضاء العدّة ، تقدم لي شاب طيار ، كان زميلاً لي بمدرسة ابتدائية مختلطة . أحسست فيه بشيء من التعويض ... لكنه يفزعني بتنبؤه : يا امرأة ، اقتصدي في كل شيء ... فلا أظن أنني عائد إليك . سألته ذات مرة أن يتوقف عن جملته الكئيبة هذه . فقال : لافتعال البطولات ... والفتوة ... ثمن باهظ . وصدّقتْ المغامرة الجديدة المؤسفة قولته . ظل في بدايتها مكتفيًا بمهاتفتي ، ثم بالرسائل ، وأخيراً بالمشافهة مع بعض الأصدقاء .

وفي ذات صباح ، اقترب مني ابني الوحيد هامسًا بقدوم سيارة غريبة اللون والشكل . انتفض قلبي حين وجدتها سيارة الإسعاف ، اقتربت أكثر فأكثر فلمحته ممداً بعَلم الوطن . حاول السائق تهدئتي ، وتسليمي

خطابًا تأبينيًا من قيادة الحزب ... مع صك مصرفي بقيمة مالية . رفضت كل شيء ، وظللت أضرب المشئومة بيدي . بعد ثلاثة شهور ، رفضت أسرته استلامي لمنحته ، استدنت فتراكمت عليَّ الديون ، فكرت في المغامرة بالتجارة ، اشتريت صندوق تفاح بالآجل ، استعرت من تاجر ثري ميزانًا لم أرَ مثله قط ، جلست بناصية الشارع فغضب مني صاحب محل تجاري ، حاولت إقناعه :

- أنت لا تبيع التفاح حتى تتضايق مني .

فرد بلهجة فهمت مرماها :

- ولو ، لكل شيء ثمن .

ووجدتني أؤكد له :

- حاضر ، أبيع وأُسدد لك أجرة الدكّة .

ويزمجر غاضبًا : أنا لا أريد نقوداً ، أريد أن تغربي عن وجهي فقط .

لحظتها فهمت على وجه الدقة والتحديد معنى الثمن عنده .

في اليوم الثاني ، قدم إليَّ شرطي الخضراوات ، طالبًا الترخيص ، قلت له :

- إني ، أعول ولداً يتيمًا .

لكنه لم يسمعني ، بدلت لهجتي إلى لهجة الحكومة ، التي تترنّم بها في الراديو :

- إني ، أعول ولد شهيد .

وظل على عناده ، قابضًا يدي الممسكة بصندوق التفاح . توسلت إليه :

- وحياة أولادك يا افندم ... ربنا اخليلك اياهم يا افندم ...

صاح في وجهي والشرر يتطاير من عينيه :

- اتركي الصندوق وإلاَّ ...

وزادت قبضتي التصاقًا بالصندوق ، فوجدها فرصة للعب بإصبعه على ظهر يدي ، بحركة غير مرئية ، بادلته بنظرة فهم مغزاها . فأطلق يدي داعيًا أتباعه بالابتعاد إلى بعيد متظاهرًا بصرامة كاذبة :

- هالمرة سامحناك ، بيعي صندوقك ولا تعيديها ثانية .

بانتهاء الدوام الرسمي ، عاد إليَّ بثياب مدنية ، تجاهلته ، فزمجر بحدَّة :

- والاتفاق ؟

في اليوم التالي ، غيرت مكاني ، ظل يبحث حتى عثر عليَّ ، وفورًا ألقى بقية الصندوق على ظهر عربة الحكومة . في اللحظة ذاتها ، أفلتت تفاحات مشاكسة فتلقفها بعض الصبية ، هاتفين بصوت واحد :

- ما أحلى تفاح القراءة .

ففهمت أنهم من ملايين يقرءون .. أو يشاهدون التفاح ولم يتذوقوه . ثم دفعني عنوة وأحكم عليَّ باب عربته . في الطريق ، انتحبت طويلاً فلم يرق قلبه ، ولم أكن خائفة على نفسي ، بقدر ما خفت على تشرد ولدي من بعدي . قلت له :

- نعم ، نحن اتفقنا لكنني نسيت .

عندها داس مكابح العربة حتى أنها كادت تفقد توازنها . ابتسم ، بادلته بواحدة مُتصنّعة . استدار لجهة وصفها بالآمنة . كنت أعتقد أنه سيكون لي عونًا في البقية المتبقية من التفاح ، فلم أجد من يتلفت إليَّ لكثرة مثيلاتي من أرامل الأهوال والويلات المؤسفة ... قررت أن أهرب بولدي ، لكنهم أمسكوا بي في اللحظات الأخيرة . اعتقدت أنهم ينفذون أوامر صارمة ، خشية عاقبة التهاون والتواطؤ . وحين اكتشفت رغبتهم نزلت عندها ... فأوصلوني للحدود بسيارة من سياراتهم نافذة الهيبة والمهابة .

- ي ي ... ي ي ... الرجال زي بعضهم في كل مكان .

تهتف واحدة سمراء ، فيما تحك صفحة ساقها في عادة معتادة للمحترفات ... ثم تسرد حكايتها :

- منذ صراع القبيلتين الكبيرتين ، ونحن نقاسي الأمرّين . الجوع ، وانتظار الموت . غادر الرعاة مراعيهم ، وتعلموا التخندق وراء متاريس ، انتصبت بمدينة الأشباح ، كلٌ يعض شفتيه لحظة البدء في نفث شريط نحاسي طويل ، كأنه سيحرر الدنيا بأسرها من الآثمين ويحولها إلى جنة عدن . دون أن يدري أنه سيخلف بعضةٍ شاربه تلك ، آلافًا مؤلفة من الأرامل ممن سيجبن أزقة القحط ، ومدن الأشلاء والوباء ، (تتنهّد مطوّحة نظرتها بين عيون مشدودة) عمل زوجي ناطقًا رسميًا لزعيمٍ قبيلة الحزب ، في كل ليلة كان يأتي متأخراً ، وبدل أن يغيّر ثيابه المموّهة ، ويعطي ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ... ينكب على رزمة من الورق ، تحمل ادعاءات وبيانات أعرف أنها لا تمُت للحقيقة بصلة . ذات مرة قرأت واحدة منها فوجدت ما يُثير العجب : «يا أبناء الوطن تعاضدكم وتآزركم لجبهتنا ، يحل الأزمة برمتها ، ويجنبنا جميعًا سفك دماء غالية وعزيزة ، «بعد أسبوع من إذاعة بيان التمويه ... توافدت قوافل مُحمّلة بكل شيء . يومها ، أخذني زوجي لمعسكر الإمداد والتموين . التقيت بالعشرات من زوجات كبار رجالات الحزب أو القبيلة . نادوا على زوجة رئيس الحزب . اخترت أنا الأخرى ما يماثل اختيارها ، حفاظًا على سمعة ومكانة زوجي ! !

كنت حريصة على أن أنتقي الماركة (اليانكية) لشهرتها ذائعة الصيت بين قبيلة الحزب بأجمعها . في الليل سألني زوجي عن اختياري ، فيما هو مشغول بتتبع قنواته الفضائية المحببة . وفجأة ظهرت وجوه سمراء ، لم يكن فيها سوى العظم والجلد ، مُحاطة بجيش من الذباب والدبابير الجائعة

اختطف ابني جهاز التدوير من أبيه ، حتى لا يُحرم من رؤية أطفال لا ينتمي إليهم إلاَّ بالجلدة السمراء وحدها . وفي لحظة هتافهم الملائكي بصوت واحد : صوماليا ... صوماليا ... انتزع الجهاز من ولده ، وكأن الأصوات إبر مدببة مغروزة بين أكتافه ، متسائلاً فيما يبحث عن (الراي دوي) الإيطالية ، هل اليوم الأحد ؟

ولم أكن سعيدة أبدًا ، رغم توفير كل شيء ، مئات من الجند ... وألوف من جوالات التراب المحيطة بخندقنا العميق وفجأة ، دوى الهاتف برنين ملحاح . لا أدري كيف أنني أحسست لحظتها ، بشيء رهيب وشيك الوقوع. ارتدى ملابس الميدان المموّهة ، وخرج بعد أن طبع قُبلة طويلة على ولده . في منتصف الليل ، سمعت رئيس فرق حراستنا يقول بأن ثمَّة سيارة تنتظرني قبالة الخندق . سألته ، فأجابني بأنها من قيادة الحزب . خرجت إليه فقادني إلى موقفها . لمحت بالأضواء الكاشفة ، سيدة تتكئ على مقدمة العربة ورأسها مطأطأ للأرض . ما أن رأتني حتى هرولت باتجاهي مولولة في نحيب متصل . فعرفت لحظتها بأن زوجي ، قد تجرّع من ذات الكأس الذي كان يعده للآخرين ...

ولم يمض شهر واحد ، حتى نقلوني لخندق متواضع الحراسة ، سواتره الترابية قليلة للغاية . حين أبديت الشكوى والتذمُّر . نقلوني لخندق أكثر تواضعًا من سالفه ، ولا توجد به أي سواتر تذكر . والأكثر من ذلك أنني حرمت من مزايا قادة الحزب . واضطررت لبيع مدخراتي. ومع مرور الوقت، صرت على حافة الجوع ، بعد أن تنكر لي كل معارفي وأقاربي ، اضطررت للاستدانة والتسوّل ، لكنها لم تكن تكفي ، وفاقد الشيء لا يعطيه.

تقاطعها واحدة تشبهها في النحافة ، وإن كانت بيضاء ، لها عينان

وأنف، شبيه بالفرنسية ، كيفاش بجاه ربي ، دخلتِ الطريقة ؟

وفهمتُ ما تعنيه صاحبة الأنف الطويل ، ردتَ السمراء ورأسها مدفون بالأرض :

- أول خطوة كانت مع رئيس فرقة حراسة خندقنا أيام زوجي . جاء متسائلاًعن حالي وكأنه لا يعرف شيئًا ، شكوت له الحال والأحوال ، فذهل متطوعًا للمساعدة لاحظت في محاورته ، أن نظراته تشي بشيء آخر . بادلته بالمثل . وفجأة ، وجدت نفسي مستسلمة إليه ، أغفو وأفيق . بخدر ، غادرني منذ أمد بعيد .

ترفع واحدة ملفوفة بالأسود يدها ، فيما تزيل غطاءها لتبدو بهية الطلعة كأنما هبطت لتوّها من السماء .

- نعم ، الرِّجال واحد في كل مكان .

تثير ملاحظتها غضبة واحدة أخرى ، فتشير ناحيتي مخاطبة الآخريات :

- الريال اللي معانا محايد ، شل [١] واحدة ، تحشى حشايتها [٢] ، وهو يحشم [٣] بالعدل .

ويشدني العدل الغائب من أساسه ، وإلاَّ لما كنا بهذا المكان .

- لم يبق منا إلاَّ اثنان فقط .

- تقول السمراء مشيرة بيدها ناحية واحدة أخرى .

- قصتي يا بنات غريبة أوي ، (ترفع قدما لتسهيل جذب جوربها الشبيه بلون بشرتها) . كنت ككل يوم أخرج من الثانوية للبيت ، أمرُّ على مقهى بالطريق . وذات مرّة غمزني شاب عربي بغمزة لم أعرها أي اهتمام ، لكن

(١) كل .

(٢) تحكي حكايتها .

(٣) يحكم .

تكرارها جرَّني إليها .

وظل يغدق عليَّ وعوداً معسولة . حين فاتحت أمي ، انتفضت وكأن عقربًا لسعها ... توجهت لأبي ، فآثر الوقوف معي . في يوم الفرح ، رأيت أمي تبكي عليَّ ببكاء مرير . وحين ذهبت معه لبلاده تحولت حياتي إلى جحيم لا يطاق . الصالون مُكتظ بالزوّار الذين لا هم لهم ، إلاَّ السهر ولعب (الديمينو) ، و(الكوتشينة) ... والنكت السَّمجة ، كنت طوال الليل أحرص على توفير الأكل ، المشروبات ، الخضراوات ، الشاي ، القهوة ، الكاكاو ، وبين كل طبق وطبق طبق ، وفي لحظة مصارحة ومكاشفة معه ، لطمني بلطمة أفقدتني توازني . في الصباح ذهبت لبيت أبيه شاكية ، فما كان منه إلاَّ أن قال : قلنا له يا ولد ، لا تتعب الولية ، احضر لها شغالة تدبِّر شئون أصحابك ، لكنه لم يسمعنا .

في اليوم التالي ، ذهبت لأخته ، فلمست منها العطف والود لكنها لم تقدر على شيء . طلبت منها ثمن تذكرة السفر فقدمته لي فوراً . وعند عودتي للوطن ، فوجئت بورقة طلاقي موجودة لدى أخي !! ومع الأيام أحسست بأنني عالة على أهلي . فاضطررت للنزول لشقق الخفاء .

وتدور علينا أكواب الحمص ، قصب السكر ، أتناول قصب السكر ، مذاقه يُعيدني لحكايات سمعتها من زارعيه الطيبين في الغيطان .

وتفضي واحدة بنكتة تُغيِّر بها لحظة الشقل : ذكرني الحمص ، بما قيل لجحا ذات مرّة :

- اعطنا حبلك يا جحا .

فاعتذر قائلاً:

- إنه مشغول الآن .

تعجب الناس . فسألوه :

- كيف ؟

فرد بهدوء : نشرت عليه الحمص !!

ضجّت الشقة بدوي قهقهاتهن ، حتى أن صاحبة الشعر الفاحم ، لم تقدر على كوب المانجا ، فاندلق في حجرها دفعة واحدة .

واحدة بين السمراء والبيضاء ، قدمت بخطوات خجولة ، مما يُنَبّئ أنها جديدة على الصنعة !! فهمت من كلمات التحايا الأولى ، أنها من ذات الجزء الذي أقطنه :

- معضلتي ، أنني أُبتليت بزوج ، يود لي نقله بين عشية وضحاها . استهجنت أمه سلوكه المتغير ... وسمعتُ من أبيه تلميحات بين العتب والاحتجاج . وحين طفح الكيل ، كشفت الأوراق دفعة واحدة ... فلزموا الصمت المطبق . ذات مرة ، فيما كنا بجولة ترفيهية ، استوقفتنا سيارة غريبة الهيئة . تَرجَّل زوجي فالتقى بهم في المسافة الفاصلة بين السيارتين . وعلى الفور عاجلوه بلكمات خاطفة ، أعقبوها بركلات بدت فيها أرجلهم كمروحة هوائية سريعة الدوران ، فيما تفرّغ بعضهم إليَّ . جذبوني من تلابيبي :

- يا فاجرة ، تقودين السيارة ؟

ذقت مرارة القسوة والمهانة ، خاصة بعد أن عرضت عن غرضهم الكامن في مسعاهم اللاّهث . سألت عنهم ، فقيل لي : إنهم جهاز مستقل بذاته ، يأمر .. وينهي .. اضطرب حال زوجي ، وأصيب بالخبل ، اضطهدت من الجميع لتشبثي به ، أهله اتهموني بكل ما جرى فاضطررت عندها لهجره مُكرهة . هجرتني الدنيا بأسرها ، حتى أهلي عتبوا عليَّ وحمّلوني ما لم أصنعه في حياتي.. عندها، همت على وجهي، ووجدت خلاصي في التيه البعيد كيفما اتفق . (ثم أجهشت ببكاء مرير ،

حاولت مجاورتها تهدئـة روعها ، والتخفيف من وطأة وجعها المثقل) .

ولا أدري كيف صار صدري ضيقًـا حرجـًا ، كمن يَصعَّدُ في السمـاء . هل كانت تراكمات الحكي المنثور بجـل أصقـاع المعمـورة العربية سببـًا ، أم أن عجــزي عن الحراك والحركـة ولـو مع واحـدة منهـن هو السـبـب ، كل واحدة تُصر على روايتها أُسوة بالأخريات ، وها هو الفخر الحقيقي .. سليل السلسلة الطويلة ... التي لم تنقطع ، يُلح في أن يلج الحلبة .

سمعت صوتًا يناديني مع نقرات خفيفة ، بدا لي أنه غير غريب عليَّ :

- هه ، قم الوقت صار ظهراً .

أقفـز مذعـوراً ، يرتطم وجهي بزهرة منحنيـة ، خارجة عن أصـيصـها ، وكأنهـا متمـردة عنيدة . وأجدني أتمتم بجـمل مقطوفـة ، حين رأيت بهاءها الخليجي المماثل لبحر الخليج :

- آه ... أهلاً... أهلاً.

- كنتَ نائمًا طيلة المدة .

- كنتُ في حلم مثير ، هه ، ماذا جرى ؟

- ألأمر بسيط .

- لكن الأمر غير بسيط .

ضـحكت قليلاً، مـسحت رأسي بيـدها ، دعكت عـيني لتطير كـوابيس أخشى سوءاتها .

- هم يطاردون الآخـرين بالشـبهـة ، فمـا بالك إذا جـاءتهم غنيمـة بين أيديهم !!

- أنت تهوّل الأمور .

- بل أتصورها .

- في المساء ، ستأخذ جوازك .

وأتخيّل قرون استشعارهـم تلتمس الأماكن ، مكانًا مكانًا .

- الخيوط تنسج على قدم وساق .

جذبتني تجاه النافذة ، فرأيت وجهي في جزء زجاجها المفتوح . تطلعت للفضاء، فرأيت وجه البحر صافيًا كوجه المدينة الطيبة بوجوه أهلها الطيبين :

- لا عليك ، سنقطعها خيطًا خيطًا .

وتذكرت ما كانت أمي الراحلة - دون وداع - تقوله عن الحكومة فرددته على مسمعها :

- «أحبال الحكومة طوال» .

ضحكتْ للجملة ، ففرحتُ لفهمها ، إذ لا عائق بين تنويعات الألسنة بيننا إلاَّ فيما ندر ... نلف المكان ، تتناغم إيقاعات الخطى ، خطوة خطوة . كأنها بالصوت والصدى تعلن عن تثبيت قادم . وتشدني بشدة أحن إليها ، رعدة تتملكني ، لا أدري فيما إذا كنت في بارقة حلم خاطف ، أم أنني بيقظة أبعدني الوجد فيها ، ولم أعد أسمع أي شيء يذكر . وأختصر المسافات بمسافة واحدة . مسافة انتفت فيها كل اللغات إلاَّ لغة العمق ذاته ... التي لا أدري أكانت أطول أم أقصر من برهة الشهد ذاته ؟

ولا أنتبه إلاَّ على آهات تعلو وتهبط ... وليدي ، تتقلّب على سهل منبسط بين قمتين صغيرتين . ثم لمحت ، أو هكذا خُيِّل لي ، أن قامة مديدة نحيفة ، تتستر بنظارة سوداء تجوب أطراف المكان ووجهها مُعلَّق بمدخل البناية . تذكرت أنني كثيراً ما كنت ألمح الوجه ، وهو يرمقني بتطلعات خاطفة ، وإن كان يحرص على أن لا تثير انتباهي وشكوكي . فهمت في تلك الهنيهة ، أنني أخضع لعيون كثيرة ، لم أقدر على تبين إلاَّ واحدة منها . ثم رن الهاتف :

- ألو ...

- ......
- نعم ....
- شكراً ، نحن قادمون إليك .
- ......
- ولا تشغل نفسك بالأمر .
- ....

وتطوّح بنظرة للبحر ، أماثلها في الوقفة والتطلع ، يداهمني إحساس غريب ، يحث على امتلاء عينيَّ بزرقة البحر وكأنني سأغادرها طائعًا ... ومكرهًا .

في المساء ، دخلنا على الآمر . تبيّنت وجهه مليًا ، نظرته مُشتتة لا تستقر على شيء ... في داخله ، ثمّة شيء ، لم يقو على البوح به بعد ، يتكلم ويده ترتعش :

- معذرة ، الداخلية بحثت المسألة من جذورها ... وأفادتني بأنها تترقّب رداً من جهة مختصة بعد بضع ساعات .

- ولكنكم أصدرتم أمراً بإخلاء سبيله ..

بدت حيرته تزداد شيئًا فشيئًا ... زفر كفرس النهر ، تحرك بمقعده الهزّاز للوراء :

- على العموم ، الرد سيكون لدى مسئول وحدة الاستخبار والاستعلام بالدائرة المركزية .

لم يصل لمنتهى كلامه إلاَّ بمشقة وكأن صوته يتحرك ببطارية ضعيفة نضائدها .

تنهّدت صاحبتي بعمق ، أحسست برعدة ساخنة تغزو أوصالي ، وأيقنت بأنني بين فكيْ كماشة . ولم يعد إلاَّ الإطباق الأخير ، ثم تمتم

بجمل مبهمة

- عمومًا ، الأمور مضبوطة على وجه التمام ، وكل منا لا يأتيه إلاَّ بقدر ما قدمت يداه .

استأذنت صاحبتي وعادت أدراجها للشارع ، سألت عن وحدة الاستخبار والاستعلام ، فقيل لها : إنها البناية الأمامية .

لمحت عند تطلعي للطريق ، القامة المديدة ، تتطلع إلينا بمرآه عربة واقفة . ما أن دخلنا ، حتى لحق بنا مسرعًا . وفيما نتجاذب أطراف الحديث مع استعلامات الدخول . فوجئت به يشد صاحبتي من شعرها :

- كلبة ابنة كلب .

ذهلتْ من ألفاظه النابية ، حاولت أن تصرخ ، لكنه سدد لها لطمة عاجلة ، سمعتُ صوت ارتطامها بالأرض ، شدَّني ثلاثة لحجرة ضيقة تقابل مكتب الاستعلام قبيل أن أتحرك لنجدتها .

أحكموا عليَّ بابها ، سمعتُ صوت ارتطام رأس صاحبتي بباب غرفتي ثلاث ضربات ، ولم أحتمل الموقف ، فظللت أركل الباب بقدمي ، جاءوا إليَّ على عجل ، وبيدهم خراطيم مياه بلاستيكية رقيقة قصيرة ، انهالوا عليَّ بها دفعة واحدة ، وكأنهم يضربون ذئبًا قفز في حظيرة أغنامهم ، أول ضربة كانت بقفا أذني ، الثانية علي خدي . الثالثة على امتداد جبهتي . ثم غبت .. غارقًا في اللاَّ وعي .

في منتصف الليل وجدت نفسي مرميًا على وجهي ، تحركت الرائحة بأنفي . تحسست بنطلوني ، فوجدته نديًا ، مسحت وجهي فإذا بمنحدرات تعلو وتهبط على امتداد وجهي الصاغر .. الصاغي لحفيف أنابيبهم المتكلمة بفعل يظنون أنه كفيل بشفاء غليلهم . انفرج الباب ، فجذبني أحدهم من تلابيبي راسمًا بخيط الماء ، دليل خساستهم ، ألفيت صاحبتي متورمة

الوجه ، منكوشة الشعر ، حمراء العينين . فتح أحدهم سجلاً كبيراً ، فيما الوجه المتستر بنظارة سوداء ، صاحب القامة المديدة يدير التحقيق :

- أنتِ مش عارفة ، صاحبك هارب من العدالة ؟

- أي عدالة هذه ؟

- قصدك مافيش عدالة ؟

- أنا أتساءل عن أي منها ؟

- وكم واحدة عندنا ؟

- أنا لا أعرف عددها عندكم .

- يا بنت الكلب بتسخري منا في وجوهنا ؟

- تليفزيونكم يعددها دائمًا ، عدالة اجتماعية ، اقتصادية ، سياسية ...

- وعندك شك فيها ؟

تدفن رأسها في ورقة مفروشة أمامها . فيرفع السائل ذقنها :

- أنا بنسألك .

- كلها هراء .

يلطمها ، فيطيح بها أرضًا . أهرع إليها ، ألملم فستانها المبعثر . فينهرني أحدهم مزمجراً :

- يا بغل ، إيش دخلك أنت .

ثم تدخل طيور البنجوين ، ينتصب صاحب القامة النحيفة رافعًا نظارته ، يُحيي الطيور ..

- هه ، وأخيراً وقعت في الفخ .

يخاطبني ، فيما يعدل «دشداشته» وكأنه يلوّح بساعته الكوارتزية الماسيّة ، تأملتُ بقية الوجوه وجهًا وجهًا . خُيِّل لي أنني رأيتها من قبل .

همس أحدهم في أذني :

- ما فيش حُفر هنا ؟

وتذكرت لحظة سقوطه في حفرة زنزانتي بالوطن قبيل هروبي ، ذكرته بسوءته ، مشيراً لفراغ لثّة أسناني :

- ولكن توجد حُفر هنا !!

ارتد للوراء ، حتى أنه رفس جلبابه فكاد أن يترنح .

- خزعبلاتك مش حتنفعك هالمرة .

يقول آخر متهكمًا ، فأرد عليه فوراً :

- يكفي أنها اعتقاد منكم .

يبتلع لعابه ، مطوّحًا نظرته بين من كانوا معنا قبيل قدومهم . لاعنًا بلا شك الشيطان الذي حرّك لساني بفضحهم أمام الآخرين .

وفجأة تلتفت الوجوه لعربة سوداء ، لها حفيف يذكرني برياح «السموم» عرفت من هيئتها أنها دبلوماسية . يترجل منها واحد تسبقه رائحة طيبة . أتذكر دم الأبنوس ، الطيب الأسمر ، الممدد في رحاب الله دون جريرة يرتكبها . تقترب بقية طيور البنجوين ، تأخذه نشوة اللحظة ، فيبدو مزهواً بنصر يتوهمه ، يقترب مني . يشدني من أُذني المتورمة ، أستجمع البقية المتبقية من قوتي :

- دمُ .

تفاجئه الضربة ، يرتد للوراء مترنحًا ، تصدّه السيارة ، وتمنع سقوطه الوشيك . تهيج الطيور ، تتطاير عباءاتها بقفزاتها الهوجاء :

- يا ثور ، تنطح سعادة السفير ؟

وسعادته يلملم أطرافه المبعثرة ، فيما يبعثرون أطرافي في كل اتجاه بركلات يحسبونها قوية ، لكنها في واقع الحال ، كمن يدغدغ العواطف ، ثم يحشروني مقيداً إلى فيلاّ واسعة الأرجاء . تبيّنت من لوحة رخامية

داخلية أنها السفارة :

- يا بغل أنت مُـدان بتُـهم ، سب الأصدقـاء والتحـريـض عليـهم ، والعصيان والتمرُّد ؟

- الخصم لا يكون حَكَمًا .

- الجواب على قد السؤال ، ماتخرجش بره منه .

- ولكني لا أعترف بالارتجال .

- هذا تحقيق مبدئي .

- أنا لا اعترف إلاَّ بتحقيق متكامل .

- حيكون جَهَنَّمَ على رأسك .

- وأنتم وقودها .

- يا ثور .

- وأنتم سلالتي العريقة .

- طافْ .

وهذه مقـدرتهم الوحيدة، حين تعـجز ألسنتـهم وتنكمش في خيبـاتها، وألمح واحداً بثوب أبيض، بكمامة عادة ما قرأت أنها تقي الغازات السامّة . تذكرت لحظتها كيف أن دولة من التحالف الثلاثيني نجحت في تمرير ملايين منهـا .. وأخـرى نجحت في تكديس السلع .. وثالثـة في أجـهـزة الإنـذار المبكر.. ورابعـة في نشر جنود الحمـاية بعد انقـضاء المهمـة .. وخامـسة في التقـاط الصور الجوية الخادعـة وتمريرها أولاًبأول .. وسادسة بتـوزيع صور البطل معانقًا البطل.. وسابعة في أشرطة مـرئية وثائقية تُبرز قدرات المارنـيز الخارقـة للعـادة.. ويقطـع دوّار إبرة التخدير تذكر البقيـة المتبقية من شقيقات التحالف. فتبًا لمن يتصدى للذكرى والتذكُّر، ويحرمنا من نعمـة لا تنسـى.

***

كذب أبيض لا يضير شيئًا ...

على أسفلت الرطوبة ، تتكوم عظام نخرة تئن غضبة الحجاج بن يوسف الثقفي ... أفيق من غفوتي القسرية ، أتطلع بعيون جاحظة ، فلا أرى إلاَّ ما يراه المعرّي ، ليل يتصل بالنهار ، ونهار يتصل بالليل .

أتحسس مسربة صدري ، أبدل متكئي ، ألوك الخواء ... أجرجر ذكريات طال عليها الأمد فقست ، واستعصت عليَّ في تمرد عجيب غريب . خمنت كيف تكون أيام عودتي القسرية . تذكرت حكمة «تفاءلوا خيراً تجدوه» فتفاءلت بثبات معتقد «النحس» في صدورهم المنخورة . ووجدتني عند الصباح أصرخ بكلمات مبعثرة بين السباب ... والسخرية ... فزمجر أحدهم في وجهي :

- يا حمار ، أغلق خراك ؟

قال فيما يمسح على بطنه البضَّة ككتلة صوف . ولم أرد ، يجذبني بحذر وتوجس ، يجلسني على مقعد بغرفة تختلف عن الأولى كثيرًا . يغيب عني ، تتقدم وجوه خُيِّل لي أنها لم تغب إلاَّ عشية أو ضحاها . سحنتها سمراء ، مناكبها عريضة ، شواربها مفتولة وكأنها أعدت لعرض مثير :

- أهلاً، ليش انت فيه تعاسة ؟

- وليش انتم جايين من آسيا ؟

- مين فيه اضرب ... وكسر نفر مش كويس ، سوا سوا انتْ ؟

- هل تكسرون الرقاب أيضًا ؟

- أيوه ، لكن حكومةْ كلام . هذا رقبةْ كسر من سيارةْ .. هذه رقبة كسر من عمارةْ .. يعني من أي حاجة تاني .

- وكيف تعلن الحكومة ذلك ؟

- حكومة كلام مش في الراديو ..

(تابعٍ بعد برهة صمت) : انت زمان مافيش ، وين امشي ؟

- بره .

- آه برَّه ... بالبيت . كويس انت فيه بيت .. يعني فيه استقامة ، لكن ليش انت ثاني جي هنا ؟

ضحكتُ للاستقامة ، وفهمتُ أنهم فهموا كل شيء بالبلد . تأملت وجوههم ... قرأت نظراتهم الباهتة المفزعة من كل شيء ... ثمَّة لحظة يقف الزمن فيها ، على عتبة الحقيقة المخبوءة وراء سترات الوهم ... لحظة تتجلى فيها الأشياء بمعدنها المكون لها . لذا ، فنظرات المأجورين ... ومرءوسيهم ، لن تقوى على ثبات المواجهة ولو إلى حين ، ثم تشدَّني حبالهم للمقعد بثباتٍ مرسوم لهم سلفًا ، يعدل أنبوبًا معدنيًا فوق رأسي ، قطرات تنسكب عليَّ بتفاوت مضطرب . أثار انتظارها في نفسي نوعًا من القلق والضجر .. فعدت لعادة الزعيق من جديد :

- يا حمار ، أغلق خراك وإلاَّ ...

يقولها رافعًا ذقني ، دون أن يدري أنه يرفع رأسي للسماء ، ويقلقني تذبذب المطر ، فهل أصلي صلاة الاستقاء ؟ وأغيب في حلم طويل ... قصير ... مع جهاز مسموع عتيق خبأه أبي في الرمال في زمن منع الراديو .

- يا شيخنا ، جزاك الله عنا كل خير ، وأكرم وفادتك إلى برنامجنا بالأجر والثواب ، أفدنا أفادكم الله بما ترونه من فتوى جليلة مُكرَّمة ، مُعظَّمة (لم يقل المذيع أن العظمة لله) عن سؤال يقول : هل طاعة ولي

الأمر واجبة في كل الأحوال ؟

يتحنحن الشيخ ، تقطع ضربة رعد جزء منها . فنحرم من سماعها كاملة :

- طاعة ولي الأمر واجبة - يعيدها ثانية بإلحاح - أقول طاعة ولي الأمر واجبة بوجوب الطاعة ذاتها . أي أنها لابد وأن تكون ، ونحن والحمد لله ، ولاة أمرنا في مطلق الطاعة . وبالتالي ، فإن أوامرهم سليمة ومتينة . (ولم يقل الشيخ والله أعلم ، كما جرت العادة عند انتهاء كل فتوى) .

- شيخنا الجليل ، وردنا سؤال من فتاة فلبينية تقول أنها تصلي ليلاًونهاراً لكنها تتعرّض لتحرشات من ولية أمرها . التي وصفتها بأنها من علية القوم ، عفواً ، من علية العائلة وهي بالطبع تقصد عائلتها .. فما الذي يمكن لها أن تفعله حيال هذه التحرشات الأسرية ؟

(صمت الشيخ قليلاً) ثم طلب صيغة السؤال من جديد . لكن المذيع آثر السلامة نؤجله يا مولانا للحلقة القادمة .

وهنا سؤال يا مولانا ، وردنا من مستمع آخر ، يتساءل عن الزكاة وفيما إذا كانت واجبة في السوائل أم لا ؟

(يصمت الشيخ ثانية) ثم يتساءل بدوره عن ما يعنيه السائل بالسوائل تحديداً ، يرد المذيع : السائل يحددها يا مولانا بزيت الزيتون ، وبالزيت الأسود .

- (يقاطعه الشيخ) ما معنى الزيت الأسود ؟ ربما يا شيخنا ، يقصد السائل ما يعرف بالقطران . (يتدخل الشيخ بحدّة) كيف ذلك ؟ أظن أنه يعني البترول ، والبترول ملك عام للمسلمين (يستدرك سريعًا ويتم جملته) بهذا البلد ، وتوزيعه كما ترون في الميزانية عادل بين الوزارات . ولوزارة الأوقاف ، كما أوضح معالي وزيرها ، نصيب الأسد (يبدو أن الشيخ نسي

أنه قال في البداية أن التوزيع عادل بين الوزارات ، كما نسى أن نصيب الأسد يعنى أنه قريب للاستحواذ ...) .

– وهذا سؤال يا شيخنا الجليل ، من مستمع يقول أنه شارك في (حرب التحرير) واقتضى الأمر أن يكون في ربع الأصدقاء بمؤخرة الخطوط . ولأنه ربع مختلط ، فقد أغواه الشيطان وقانا الله وإياكم ، لمضاجعة مُجندة بيضاء ، فاكتشفتْ المسألة مُجندة سمراء ، فضغطت عليه ، وأجبرته أن يعاشرها بالمماثلة . تقدم بطلب لنقله للوحدات العربية المرابطة في المواجهة ، ولأنه يعمل سائقًا ، فقد عاد من جديد لربع الأصدقاء ، وجد عندهم هذه المرَّة متنفسات عربيات ، تنفس في إحداهن بالحلال ، عند قراءة الفاتحة فيها ، بشهود الأصدقاء المارنزيين . والسؤال ، هل شهادة الأصدقاء في الفاتحة جائزة شرعًا ؟

تحنحن الشيخ ، تمتم بصوت قريب للمخنوق :

– شوف ... شوف ... أولاً، الشهود من أهل الكتاب ، ولا غبار في شهادتهم . أما مسألة دخوله بالمجندتين ، فرغم أنهن من أهل الكتاب ، إلاَّ أنه كان يفترض أن يعقد عليهن ، كما فعل مع العربية . وطبعًا المسألة وقعت في زمن حرج للغاية ، وعلى الرجل مهام جسام ، ونرجو من الله لإخواننا المغفرة والثواب .

وسؤال أخير يا مولانا من مستمع كريم يقول : هل يجوز لأسرة واحدة مثلاً، أن تستأثر بعوائد كان يفترض توزيعها على كل الأُسر بالتساوي بشكل أو بآخر ، ويضرب لنا المستمع مثلاً ، هل يجوز لأسرة ولي الأمر (وانقطع الإرسال المباشر ، ليعلن المذيع العام للإذاعة عن أسفه للخلل الفني بحجرة البث المباشر ، منتقلاًللفقرة الموالية) .

وأستيقظ على طرقات حذاء ، بدت وكأنها مارش عسكري مثير ،

يهدف وقعها لتثبيت أركان تتداعى ...

- هه ، عساك بخير ..

وجهه مجهد كعجوز لا تمل الشطط في الفراغ . شعره منكوش كما لو أنه قنفذ ينكمش بالانثناء والتقوقع ، يحس بمهانة يتلعها في حرج . يصفق بيديه في عادة معتادة ، للزهو والترفّع . تتحلق به الشوارب المفتولة . مددت بصري لامتداد بلاطات السيراميك الفرعوني ، المجلوب بصفقات نصفها ذهب لأحواض تزيين القصور ... والفلل ... والأرصدة ... وجيوب الأتباع والمرتزقة ، في تنافس لا يعرفه البسطاء أمثالي ، المهملين بأطراف مدن تتكئ عليها أكواخ الزنك والصفيح . أو بقيعان القرى المنسية منذ أمد لم ينته بعد .

- هه ، قوموا بالواجب .

ولا يكون التقصير حاضراً .. ولا يكون حليفًا لأجهزة مستعدة لأن تلتقطك من فوق زوجتك . أرأيت كيف يُغني التليفزيون بالأمن والأمان ؟ هل حللت المعادلة أم أنها استعصت عليك ، كما استعصت عليَّ ؟

رفعت وجهي ، فرأيت أصابعه تدور في اتجاه واحد ، خمنت أن الدوران يخص رقبتي ، أرخيتها ، عدلت في تخميني - عن الاعتقاد الأول إلى تبدل وجهة المقعد - فأرخيت جسدي . فكوا قيدي ، زحزحوا المقعد عني قليلاً ، فكوا عقد الحبل ، أترنح في وقفتي ، وأصطدم به ، يترنح هو الآخر ، ثم ينكفئ على المقعد .. يتذوق كأسًا أعده بدقة متناهية . فهل كان يقدمه بذات الطعم لو عرفت أن سيتجرعه ؟ ويرتفع رصيد «النحس» المحسوب في أذهانهم رغم ادعاءات النفي القاطع وفق مذهب يعتنقونه بصلابة .

فتحت عيني بنصف اتساعها فلم ألمح سوى المقعد ، أو بقايا حبل وثاقي . خمنت أن أقتفي أثرهم لأستطلع المكان ، لكنني عدلت عن الفكرة.

عددت انتصاراتي في معترك الزنازين ، أحسست بنشوة مُثلي زادت من رصيد ثباتي ويقيني على المجابهة حتى آخر رمق . سمعت دوي جلبة كلامية قادمة ، مشدودة للعجلة والترقب . تسابق وقع أقدامها يذكرني بكاتمة الصوت ، السابحة في فضائنا دون حسيب أو رقيب ، اللهم إلاّ قصاصات الاحتجاج «المرفوعة إلى مجلس الأمن» بشدة بالغة كما تقول إذاعتنا العربية . دون أن تضيف أن المجلس قام بحفظها في أدراجه ، لتدخل التاريخ . أرأيتم كيف تتنكر إذاعتنا لصناعة الجميل !

تماثلت للموت ، انكفأ أحدهم عليَّ وهتف بالاكتشاف :

- شطان ... هو مافيش موت ، هو فيه شطان .

-يخنقني ، أتصنع الفزع ، يشدني بوثاق محكم إلى عمود لم أتبينه ، ينهمر مطر اللكم والرفس ، بعضهم يتخصص ببطني ، وبعضهم بصدري ووجهي . خُيِّل لي أن ما أراه مجرد تسلية ... أكسبتني بالصبر الدءوب عادة معتادة في المجابهة بصمت مطبق ، وفجأة ينهمر عليَّ ماء بين البارد والساخن ، ويُكَوِّنُ تدفقه ما يشبه «طرحة» العروس . شفافة ، رقيقة تسمح بمنتهي الرؤية . فأتذكر بها دولة تلعب بحلبة المشاكسة . تارة تتنصّل من إسلاميتها وشرقيتها . وتارة تلجم المياه الجارية في انحدار انسيابي قديم .. وتارة - ثالثة - تلوِّح بقبضة النجمة السداسية ، وكأنها ظل الله في الأرض. وتارة - رابعة - تغير على تخوم مجاورة لها ، بحجة مطاردة فلول كردية هاربة ، لا مطلب لها إلاّ العيش كالآخرين على وجه الأرض . وأتذكر بالطرحة ذاتها ، اللعب بالنار في أعالي النيل ... وأتخيل الملايين تجري كجرذان تفر من قدرها إلى قدرها . ولا أحد في العالم يحرك ساكنًا . يصل الماء لركبتي ، ألمح دائرة حمراء تحيط بي في الوسط المائي .. أحس بجسدي رخواً كإسفنجة . داهمني إحساس بدنو أجلي كخيار أخير للخلاص .

أتذكر دم الأبنوس المسكوب بالمجان . أقرأ تعاويذ علمني إياها في رحلتنا الظلامية المشهودة . أطوف على جُل المغادرين دون وداع ، باستذكار يتوق لتفاصيل النفس الأخير ، وفجأة ، انجلت غيمة «الطرحة» الشفافة ، وصارت الرؤية بدونها عديمة الجدوى والإحساس . ثم تنشق الأرض بفتحة آلية ، لم أنتبه لها في بدء قدومي . تبتلع الماء ، أحس برعدة برد تنتابني ، تلتصق بي ملابسي الرثّة بمجرد أن يتخلى عنها الماء . كانت من هول الشد والركل ... والجرجرة ، مموّهة بأحمري القاني . تمامًا ، كبدل الصاعقة والمظلات ، أبطال مناسبات «الجلوس على العرش» و«تجديد البعية» في مواكب مهيبة .. تخجل منها مرتفعات الجولان .. والجنوب الكئيب .. وسبتة ومليلة كسيرتا الجناحين .. وأم الرشراش عربية الوشم والوجه .

- بحبوحة هه ؟

يقول وجه جديد ، لم آلفه من قبل ، ولا أرد عليه بشيء . يجول بقامته ، فيما بقع الماء تنعكس على إطار ساعته المذهبة . ألمحه يبعتد عني محملقًا في وثاقي . يعاودني بكلمات متناثرة :

- هه المناوءة جابتلك نتيجة ؟

حدّجته بنظرة تحمل دلالتها .. ارتعدتُ من لفحة برد عابرة ، لم يأبه لرذاذ الماء عليه ، يصفق بعادة سابقيه ، أسمع صراخًا قريبًا للإنشاد الطويل ، كان التنغيم في امتداده الآسر ، شبيهًا بمعزوفة منفردة بوقع غير قصير .

- عرفت الصوت ؟

تشاغلت عنه بهرش ظهري على العمود . تابع : هذا صوت ولدك . (ينتفض داخلي ، رعدة ساخنة تداهم أوصالي ، أبتلع لعابي ، أتظاهر برباطة الجأش ، يتحول الصوت بما يشبه ثغاء جدي) ولدك ، سيظل ضيفًا

علينا إلى أن تشهر توبتك النصوحة . (يدفن رأسه بالأرض ، إذْ استنفد كل ما عنده وهل يكون لأمثاله كثير ؟) تغيب طرقات حذائه التعس ، تمامًا كما غابت صيحة طارد الحدأة بكلمة لازلت أستحضرها :

- ((حرام .. حرام .. حرام)) .

أول مرة سمعت النداء ، خرجت من حجر أمي فألفيت الرجل يُعلِّق وجهه للسماء ، فيما كانت الحدأة تتفرس بيوت الكتاكيت . هرع أطفال النجع مع أمهاتهم وشاركوا الرجل نشيده المسموع . أفلحتْ الحدأة في غفلة منا ، والتقطت كتكوتًا صغيراً ظل يلوي رأسه في الفراغ بصورة مثيرة للشفقة . فيما أمه تعلو وتهبط مثقلة بالوجع والحسرة . في الليل ، سألت أمي عن الموت : من أين يأتي ومن يرسله للكتاكيت ؟ ضحكتْ لسؤالي ، ثم قالت : إذا تخيّل الصبية الموت ، وبثوا الشكوى لأمهاتهم ، فإنهن يبعدنه بالدعاء ، ولو أدى الأمر إلى توجيهه لأنفسهن .. وحدث مرة أن ولداً مشاكسًا ، أخذ كتكوتًا صغيراً وأزال ريشه ، ثم وضعه تحت قصعة في غفلة من أمه . وقبيل المغرب بقليل ، جاء إليها باكيًا : الموت سيأتي إليّ هذه الليلة يا أمي . جزعت المسكينة ، وتمنت أن يأتي إليها وحدها ، لكن تأكيده أفزعها . وفجأة ، هتف مشيراً للقصعة المنكفئة :

- هه ، اسمعي صوت الموت ؟ إنه تحت القصعة .

وأُسقط في يدها ، لم تعطها المفاجأة أي برهة لتذكر الموت كما عرفته . ثم تقدم في بُطء وحذر ، رافعًا الغطاء بعصا طويلة ، فخرج الكتكوت بصورته المرعبة باتجاه الأم . فما كان منها إلاَّ أن فرّت منه هاتفة :

- «يا موت ، دونك صاحبك» !!

وأحسُ بضربات تطرق رأسي ، رفعتُ وجهي فألفيت الوجوه القمحية، تعودني من جديد ، وكأنه لا شغل لها غيري . زمجر أحدهم بلهجة

مكسورة ، فيـما يدفع إليَّ بكسر خـبز يابسة ، وآنية ماء ، وأخـرى لا يـعوم فيها شيء :

- مفيش كلام ؟

حدجته بنظرة تحمل دلالتها ، فتابع :

- المشكلة ، أنت كثير كلام أمريكا مش كويس ... أمريكا مش كويس .

ضحكت من تكراره للجملة ، دون أن أتفوّه بشيء . التفتوا لبعضهم في صمت ، ثم غرز المتكلم عصاته في بطني :

- أنت تفتكر أمريكا مش كويس ، هي ديما أعطى عشان أنتم كل شيء، تكنولوچيا .. أواكس .. نفر حماية .. كنتاكي ..

ضحكت ثانية ، من كل شيء .. سألته :

- هل الهواء والماء من أفضالها وخيرها الوفير ؟

لكنه تجاهل السؤال وزاد ضغط عصاته :

- أنت ليش اضحك ؟

ولم يستوعبوا فيمـا يبدو جـواب الضحك ، ضـرب آخر أصـابعي ، فانتفـخت من فورها . ضربني ثالث بصفعـة أدارت وجهي لليمين ، أتململ بين حبال الشد :

- طافْ .

يعود وجهي باتجـاه اليسار ، تشكو الريح من تحريكهـا بفظاظة وغلاظة . يقسو بحـذائه على أصابع قدمي ، أحاول جذبها للوراء ، لكن قـسوة الشدّ كانت أقوى ، أجرب في تأن ثني ركبتي ، أكتشف أن مقدار انحناءها كفيل بمهمة أرجوها ، وفجأة ، أدفعهـا بقـوة لتذيـق القـدم الضـاغطـة على أصابع قدمي مـرارة مماثلة . ينفجر بصرخـة مدوية ، ترتبك مجـموعته ، حـتى أنها تظل لثوان دون حراك . ثم يرفعونه وآهاته تجلجل بالفضاء ، تأمل متعادلات

التعـامل ، اكتشـف أن ردّة الفعل موازنة لفـعل البدء السـيء .. ثم تعودني هيئتهم متكاملة الأركان ، يرفع أحـدهم قدمه فـلا يصطدم بذقني .. يترنح ميمنة وميسرة ، أحس بتداعي الأركان كلها ، يشدني آخر من ناصيتي :

- يا كلب الكلاب .

أُعلِّق عيني بـه ، أشمئـز من اللون .. والرائحة .. يتـابع : ألاَّ تتوقف عن ألاعيبك ؟ يهزني ثانية ، مزهواً بنصر يتوهمه ، تمامًا كما كانت الإذاعة تسير في زفة رسمت لها مسبقًا أيام «حرب الخليج» . ويداهمني هاجس ملحاح، أفواه الشره مشرعة بالمدى ، تقتـات قوتنا الأسود .. ومع ذلك نستمسك بها كأنها العروة الوثقى .

- اتفوه على وجهك يا ابن السافلة .

يسـبني آخـر يـبـدو من وجـهـه أنه جـديد عليّ . ثم يـومئ لهم بشـارة يفهمونها .

تفك حبـالي ، يجرجـرني من أذني ، بردهات أسمع فـيها أصـواتًا تعلو وتنخفض .. كأنها تتدرّب على وقع نشيد جماعي رتيب ، في زمن يبدو أنه أول المساء ، أتذكر لحظتها ما كان أبي يردده على مسمعي :

- الحبس للرجال .

كنت أعتقـد في طفولتي ، أنه يعني استثناء النسـاء من المسألة . تساءلت يومها : هل لأن «كيدهن عظيم» ؟

ذات مرّة ، قالت واحدة لعشيقها :

- ستطؤني بمعرفة زوجي .

ذهل الرجل ، رسـمتْ له تفـاصيل الواقـعـة خطًا خطًا . وحين أظلمت الدنيا ، توددت لزوجها :

- يا رجل أريد الذهاب لأهلي .

تمنّع في بادئ الأمر ، لكنه اضطر للرضوخ والموافقة . في الطريق رجته أن يخطف بطيخة ليملأ بها خواء يديه أمام أهلها ، حاول أن يتملّص المهمة ، لكنها أقنعته ، وما أن رفع البطيخة ، حتى فاجأه صاحب الغلة . زمجر في وجهه ، ثم خيّره بين أمرين أحلاهما مُر ، إما أن يُرجِّع البطيخة لمنبتها كما كانت عليه ، وإما أن يضاجعه ! حيّره المطلب ، تدخلت الزوجة لحسم المسألة متعللة بأنها خلقت لذلك .. لكن الرجل اشترط مع ذلك شرطًا عجيبًا غريبًا ، إذ طلب من الزوج أن يقوم بمهمة رفع خصيتيه لحظة الجماع ، لأن احتكاكها بالغلة ، سيشعل النار بالمحصول .. في الطريق قال الزوج لزوجته :

- أهلكته .

سألته :

- كيف ؟

فرد بزهو :

- أحرقت غلته !!

***

كذب أحمر لا يحقق شيئاً

- سامع صراخ ابنك مافيش فاصل عنه إلاَّ الباب .

أنفلت من بين يديه مسترقًا السمع ، أخبط الباب بضربات مدوية لا يعلوها إلاَّ ندائي الحاد . لكن قوته كانت فوق كل اعتبار . تنتابني ما يشبه الهستيريا ، حين أسمع رد صراخه ممزوجًا بنباح متواصل . ويصل بي لباب كبير مليء بفتحات مسدودة يدلفني به ، أترنح تتلقفني الأيادي ودوي قهقهاتها يصم أذني .

لفَّني أحدهم بجلباب رماه لتوّه ، لوى آخر يدي وضغط عليها ، قفز ثالث فوق ظهري فأسقطني ثقله . تفرست في الوجوه المتحفزة ، بعيون حمراء مفلوتة بالمدى . قهقه أحدهم فتبعه الآخرون في هيستريا ظاهرة . تناوبو امتطاء ظهري دون أن اقدر على الحراك . أيقنت لحظتها بأني أعاقب بعقاب متطور هذه المرّة إذ ما عساني أن أفعل لجمع من المخبولين والمعتوهين العتاة . حاولت أن أتبيّن تفاصيل المشهد . خُيِّل لي أنهم شلل منقسمة على نفسها . هذا يتيح لي بطبيعة الحال ، مهمة تحديد موقفي . ولم تمض ساعة واحدة ، حتى انقلبتْ حساباتي ، واختلطت الشلل في معركة حامية الوطيس . حاولت أن أحتمي بزاوية الحائط لكن ذلك مكّن بعضهم من أن يقفز في الهواء ، ويرفسني دون أن أتمكّن من الهروب . تعلمت بالممارسة ، تفادي ضربات واقعة لا محالة ، بفضل قوايّ العقلية الراجحة حتى الآن .

وفجأة تعرى القوم في لحظة واحدة . تحيرت في المسألة وظللت أرقب

المشـهـد من بعـيـد ، ثم انهـالوا عليَّ دفـعـة واحدة بالجـذب والجـرجـرة ، فانسلخـتْ عني ثيابي قطعـة قطعة ، حاولت رغم الكـدمات المؤلمة أن أقف وظهري للحـائط ، ساتراً عانتي قدر المسـتطاع . وكلما اقتـرب مني أحدهم اضطر لترك مكاني ، صور عديدة يمكن للمرء أن يلمحـهـا بالمشهدية المثيرة ، كنت مـشدوداً للخـجل والحـياء في بادىء اللعبـة . لكنها صـارت عندي بالفعل والمجـاورة نمطًا معـتاداً ، مكّنني من التآلف مع مـنتصبـات تتدلى في الفراغ ، دون أن تقترب ، ولو مجرد الاقتراب من أحد .

حاولت أن أتبـيّن فيمـا إذا كان أحد يشـبه حالتي العـقلية أم لا ، ولكن دون جدوى . وفـجأة ، صـرخ أحدهم بحـدّة فهـرعوا للزاوية ، وتخـاطفوا الملابس المكدسة فـي كوم مهـول . ولـم يكن نصيبي سـوى نصف بنطلون ، هدأتْ الجلبـة ، وارتخت العضلات المجـبولة بالشـد ولوي الأعناق . رأيت أحدهم يفتشهم ويرغم كل من لديه قطعـة زائدة عن حاجته ، على خلعها . اقتربت منه ، فلم أفهم لعباراته أي معنى . إذ كان يقول مثلاًلأحدهم ، لحظة توجيه أمر الخلع :

- زين .. زين .. اطلعْ للقمرْ .. اطلعْ للقمرْ ..

ثم يقول لآخر :

- زين .. انت طالع لجارتك ، تذبح الخروف بدون سكين ..

يئست منه ، رغم أن ملامـحـه تشي بتعـقله وثبـات الأمـل فيـه ، أدور بينهـم مـتفـرسًا في كل حـالة على حـدة . توزيع وجبـات الحسـاء والخبـز اليـابـس ، يتم بمعـرفـة سجّـان يعـرفهـم وجـهًـا وجـهـًا ولولا ذلك لمـات بعضـهـم بالجوع والعطش . كنس المكان لا يتم بشكل مـتواصل ومنتظـم . لذا عليَّ أن أحذر المستنقعات أو كتل «الخـرا» المبعثرة هنا وهناك . ولم يُثمر تفـرُّسي في الأحوال مـفردة عن شيء يُـذكر . بل قلب الموازين رأسًا على

عقب . فإن تفحصت الوجوه ، نطحتك . وإن تأملت الأقدام رفستك .
ووجدت أن أنجع السبل مماثلة الحالة بالخضوع والركون بما هي عليه .
ظللت طوال ليلتي الأولى ، مقرفصًا بجوار الحائط . متجنبًا مصائب
الزوايد . ولم أكن أغفو برمشة عين ، إلاَّ وتحدث جلبة ما . عشرون يومًا
بليلها ونهارها ، وأنا مجنون بالقسر .. والتطويع .. ساكنًا وثائراً .. راكضًا
وراء سراب التجريب والتمني ، فلا أجد إلاَّ خيباتي تلاحقني بالشد
والضم . خطرتْ لي فكرة فأردت تجريبها ، ترنمت بصوت جهور ، مقلداً
محمد عبده ، كاظم الساهر ، عبد المجيد عبد الله ، رابح درياسه ، سميرة
سعيد ، فريدة بلان (كما قالها غوار الطوشي) .. طلال المداح ، محمد
حسن ، نوال الزغبي ، نجوى كرم ، عمرو دياب .

سيطرت هذه الترنيمات المقطعية عليهم بعض الشيء . لكنها لم تكن
بالقدر الذي كنت أرجوه . أبدلت الطريقة بطرائق أخرى ، علِّي أصل لحل
العقد المُعقدّة . بدأت بنهيق الحمار فضجوا بالضحك المنتهى بضربات
وتصادم الرءوس . ثم بخوار البقر ... وصهيل الخيل المسرجة إلى بعيد ...
وكذ همهمة القرود الهائجة .. مع الحرص على مماثلة كل صوت بما
يتفق معه من حركات كبيرة أو صغيرة ، لاحظت فيما يلاحظه الصاحي ،
أو العاقل بذرات قليلة من العقل ، أن للتبدل أثراً نوعيًا وإن لم يكن
مكتملاً، حولت المسألة من جنس البغال إلى أحلام العصافير . انتبه القوم
بإصغاء عجيب ، مررت على هديل الحمام ، نقيق الضفادع ، وفحيح
الأفاعي ، ثم صنعت من عندي أصواتًا لأشياء لا وجود لها . مما زاد في
شدّهم وتعلُّقهم بي . أحسستُ لحظتها بأني إذا ما قُدِّر لي الخروج سليم
العقل والجسد سأكون مؤهلاًلقيادة وتزعُّم قبيلة جديدة أصنعها بالضم ..
والمجاورة .. قلت لنفسي وأنا منتشٍ بتباشير شد المجانين أن ذلك سهل

للغاية مع العقلاء ، شريطة أن يكون من بينهم نفر غير قليل من المغفلين .. أو النفعيين .. أو ممن تنتابهم وبسرعة رعدات التوجس والخوف . ولا أعتقد - كما قلت لنفسي - أن ذلك صعب المنال . والتجارب العربية وحدها شاهدة وشهيدة . صنعت بالسيطرة الجديدة . من تنوّع القمصان التي كنت آمر بخلعها . هيئة ومهابة مثيرة .

دعّمت هيئة السيد المطاع .. الآمر الناهي وحده ، ولا أحد غيره على الإطلاق ، خمنت أن من المخبولين والمجانين أناسًا تصنعوا الخبل واندمجوا فيه مثلي . اغتنمت صمتهم المطبق وتطلُّعهم إليَّ . ففتحت فمي بأقصى اتساع له ، دون أن أعبأ بقطعان الذباب الحائمة حوله في دورات شرهة محمومة :

- اسمعوا ، أعرف أن بينكم عقلاء ، وأظن أنه آن الأوان لنتعاضد ، ونفوّت الفرصة عليهم ولو بهدم صدّ الحائط . طوّحتُ نظري بينهم ، فلمحت بعضهم يغمزني في لمحة خاطفة .

- من منا فليتبعنا .

وأسير إلى المكان .. فتتبعني عقولٌ ، كادت أن تقع في هاوية الانمحاق التدريجي ... تحفّزت البقية المتبقية القاطنة حقًا في عمق الخبل والجنون ، غرست فيها جمعًا منا للترويض والتطويع ، حددت لهم أمراً مستديمًا بالتشتت والتيه للتمويه والتغطية ، إلى أن تحين لحظة الحسم والمجابهة ، انزويت بالمكان .. المثابة المختارة للتورية ، ثم أومأت لأحدهم باللحاق :

- سيرتك ؟

- بدء لا نهاية لها ، كنت مهندسًا بحقل للذهب الأسود ، أُجبرت لأن أعمل مترجمًا لقائد «المارينز» . ذات مرة ، اصطحبته للقاء شخصية أميرية . سمعته لحظة اللقاء يهمس لمساعده ، بطرفة سمجة ، يحذره فيها من تعثره

بجلباب الأمير . غرز قدميه في الرمل . تأمل شساعة الفضاء وخاطب الأمير باستنكاف وصلف ظاهر :

– جئنا ، رغم الأهوال والمخاطر ، وتوقعاتنا أن الطرف الآخر يعد العُدّة للكر في رابعة النهار ، أو الليالي القمرية . لذا ، فإن خيارنا للقوات مبني على التوقع المذكور . وعلى كل ، احتياجكم لقوات متدربة على الصدّ في الأوقات الظلامية متوقف على مدى استعدادكم لقبول المزيد .. ودفع مستحقاتها مقدمًا . تطلعت في وجه الأمير ، وأنا أنقل إليه الكلمات .. فلاحظت تبرمه وتبدله ، وإن جاهد في الإخفاء ، تململ في قعدته ، جذب أطراف عباءته . حاول أن يتصنع اختلاق ابتسامة كالتي نراها عندما يقابل جمعًا من أقاربه في حفل أو مناسبة رسمية ، منقولة بالتليفزيون ، مع أن الواقع يعلمه الله والمقربون .. ثم دمدم بكلمات مرتعشة ... مبعثرة :

– الصديق لا يُعرف إلاّ في الضيق . وضائقتنا تكمن في خوفنا من جيوش الظلام ... (صار لديه وهم ، بأن خصمه ، يمتلك هو الآخر جيشًا خاصًا بالإغارة في وقت الظلام !) وفي تكالب فواتير قد نعجز حاليًا عن سدادها . وسأعرض الأمر .. وأوافيكم بالرد عاجلاً.

بدت من المارينزي حركة تبرُّم ، فقام قبيل أن أتم له الترجمة . فيما ظل الأمير يُعلِّق بصره في امتداده الطويل .. ثم قام وانحنى بتحية الوداع ، فنزلت عباءته تكنس الرمل الملوث بفضلات ((الكوكولا)) وزجاجات أخرى مطوّحة هنا وهناك ... تذكرت لحظتها . ما كان يقوله في كل مناسبة عبر التليفزيون : من أن قواتنا الباسلة ، ستصد كل من تسوّل له نفسه تسور أسوارنا بالليل أو النهار . وكدت أن أهتف له قبيل أن يصعد عربته الفاخرة ببيت شهير :

«في السلم جفاء وغلظة   وفي الحرب أمثال النساء العوارك»

فيما كان غبار السيارات المصاحبة للمارينزي ، تثير على عربة الأمير سيلاًمن الغبار المتدافع الذي لو قال لنا الأصدقاء ، أنه من تحريك الخصم... لصدقناه ، وسبينا خصمنا لفعله المشين . تتبعت المارينزي كظله ، وذات مرة استدعى آمر وحدة عربية من موقع متقدم ، وبّخه عن تهاون ملحوظ ، فما كان من الآمر إلاّ أن رد :

- لو تهاونا فإننا أول من يحصد الخسارة .

فزمجر المارينزي باستعلاء :

- لسنا على استعداد في أن نذهب للجحيم من أجلكم .

ومن يومها ، لم يعد للآمر من وجود بمكانه . بعد أيام من الاختيار ، في ملازمة قائد العمليات الكبرى . لاحظت أن الرجل يتفنن في الإلقاء ، وغير مستعد للاستماع . حتى أنه رفض بحجة حاجته لقسط من الراحة ، الرد على مكالمة عاجلة من غرفة القيادة العربية . ورغم أنني لا أمتلك خبرة في تنويعات السلاح ، إلاّ أن نظرة خاطفة لأوراق الفواتير ... وكتابات الصناديق الفارغة ، تنبئ بأشياء متطورة تستعمل لأول مرة وخاصة ما يلتصق منها ، ببطن الطائرات . (حدث تململ في قعدة المخبولين بالزاوية الغربية ، قمعها العاقلون بذكاء وحكمة) ثم فوجئت بمساعده ، يصدر قراراً بتحويلي للمركز الاستراتيجي لأبحاث ودراسات المنطقة حديثة المنشأ . تحيرت كيف يصدر ذلك، وأنا لا أتبعه إداريًا .. رفعت شكوى بالخصوص ، فألزموني بالصمت . في أول اجتماع موسع لقيادة المركز ، لاحظت وجود خارطة مجسمة وأخرى جوية التقطت بقمر صناعي ، حتى أنني استطعت التعرُّف بوضوح على موقع بيتي . أول المتحدثين . كان بدينًا ، ذو شعر مسترسل ، وقامة فارعة . حين وقفت بجواره للقيام بالترجمة ، جذبني أحدهم للوراء . لم تُمكّنني المسافة من سماعه بوضوح ، فتقدمت ببضع خطوات ، لكن

الجذب عاودني من جديد ، تكلم الرجل بلكنة خفيفة سريعة ، عرفت أنها تنتسب إلى شيكاغو . تمحور كلامه عن الأمن والأمان ، وتضحياتهم الجمّة بالدماء ، من أجل أن تخمد العواصف . ثم جذب من جيبه عصا حديدية ، تتداخل ببعضها البعض ، فتحها وراح يضع دوائر وهمية حول مناطق المتدفق الأسود . موهمًا بضرورة التركيز على حمايتها . قاطعه عضو عربي متسائلاًعن إمكانية وضع الأولوية للبحوث الزراعية ، وخاصة ما يتصل بالنخيل .. والري بما يتناسب وطبيعة المنطقة . ثم الصناعية وتحديداً أولويات التدريب النظري والعملي . وكان الشيكاغوي طوال السؤال يهزأ بما يسمع . ثم رد بعنجهية :

- المسائل تخضع لأولويات ، وكذا للمقدرة في تمويلكم لهذه القلعة الفريدة من نوعها في العالم !!

(يقطع محدثي نفسًا عميقًا ، كاتمًا حسرة دفينة) ، تعجبت للإجابة السريعة للمطلب . فانهالت الإمكانات بكبيرها وصغيرها كمطر الخريف ، دون أن تظهر ولو نتيجة واحدة ، مما عدّده أو افترضه العضو العربي ، الذي كان مجرد رقم في لوحة الشرف يوم الافتتاح . وقررت إبدال ثوبي هذه المرة ، أُنقِّب عن خفايا الأشياء ، بين شقوق الجدران وشقوق أشداقهم ، اللاّعبة بالخمرة . فعرفت ما لا يمكن وصفه أو تصديقه ... دولة داخل الدولة .

أحسوا بالسوس ينخر العظم ، فرفعوا توصية يبدو أنها شديدة اللطف والتهذيب !! ثم وجدت نفسي في خانة الظل . موصومًا بتهمة المناوءة . لأقبع مباشرة هنا بين المخبولين ولأجبر على الدور ذاته ... طائعًا ... كارهًا. هاج الجمع ثانية ، تصدى لهم العاقلون بالملاطفة ، فسكتوا طواعية ، أومأت لشاب آخر فقدم إليَّ على عجل .

- لا أدري كيف أنه لم يخطر على بالنا صنيعك الجميل .

- للأشياء دائمًا أوقاتها ، (تنهّد بعمق ، ثم استرسل بسلاسة وإن كانت موغلة في التأسي) أسسنا شركة تختص بجلب مستلزمات التأسيس والإنشاء البنائي ، فوجئنا بـ «كتف سمين» أو هكذا وصفوه لنا ، يتصدى لنا في السوق . تجنبناه ، لكنه ظل يطاردنا ، تركنا له الفضاء وتوجهنا لنشاط آخر ومع ذلك وجدناه يقف لنا بالمرصاد ، ولم نجد بُدًا من أن نقفز خارج السور ... ونعلن التعرية وهذا أقصى ما نقدر عليه . فوجئ بالضربة .. الفضيحة .. لكنه أدرك بعيونه المبثوثة بكل الأرجاء فاصلة اللعبة ، فأوكل لزبانيته مهمة جرجرتي إلى عتمة الأقبية .

لمحتُ انفعالاته تعلو شيئًا فشيئًا ، فأيقنت أن صدره يلتهب ويختلب بأشياء كثيرة تتماثل ، وما يشاع عن أبناء الذوات العربية ، الذين تسامعت بهم الدنيا بطولها وعرضها ... خشيت إن أطلت الجلسة ، بأن يضيق صدره ، فينفجر البركان ولا أجد مسعفًا يداري الجرح ويكفف تدفق الأحمر القاني ... أومأت لثالث ، فقدم بهدوء وثبات .

- شكراً سيدي ، صنيعك أنقذنا .

- وسيرتك ؟

- أوو ، لا تنكأ جراحي يا صديقي . صمت ، شرد ذهنه إلى بعيد أو هكذا يبدو ، كنت أغمس ريشتي في محبرة الصحافة ، ذات مرة كتبت قصة من عين الحقيقة ، لفتاة تفجّرت بغضبة كبرى ، فقادت سيارة أبيها ، فصدمت بها سيارة أخرى . وتصادف أن حضر جماعة . أفعالها عكس أقوالها ... في التحقيق جرّموها بمخالفة القانون ، وبالتجاسر والتلفّظ بألفاظ نابية ، وبنيّة التوجه للمسرح وأداء دور مباشر فيه ، اضطربت أطراف مدير التحرير وعلّق المقالة في رقبة رئيس التحرير ، انتفض هو الآخر كالملدوغ وحوّل الكارثة - أو هكذا وصفها - لرئيس مجلس الإدارة .

ابتهل الأخير للقبضة الصاعقة ، الناجحة ، فأقفل على نفسه مكتبه وأدار أرقامًا ساخنة في جهازه النقال . وقبيل نهاية الدوام ، نقلوني بعربة مغلقة لجهة لم أتبينها ثم أجلسوني قبالة محقق جلف ، لا يعرف ترابط الجمل ، وإن كان عارفًا بمربط الجمل . وأول كلمة قالها لي :

- إن بطنك متخوضنة (يعني مشخنة) متكسلة (يعني متكلسة) ، وقلمك صار خزيئًا (يعني جريئاً) ينطق بالممنوعات .

لحظتها دفنت رأسي ، بعد أن كادت ضحكة تفلت مني وتورطني في مزيد من سماع اعوجاج الكلام المتدافع بلا معنى . في اللحظة ذاتها ، همس له من دخل عليه لتوه بشيء ما ، فسألني :

- إيش الكتب اللي بتقراها بالبيت ؟

- عندها سألته بدوري :

- سعادتك عن أي مرجع تبحث ؟

لم يفهم ما تعني عبارة (المرجع) ، فوقف حائراً عند السؤال . ثم حاول أن يلملم كلمات ، علّها تنقذه :

- أنا قلت اسم الكتاب اللي في بيتك ؟

رددت بحزم : أنا لدي كتب كثيرة ..

وقاطعني :

- أنا أحكي عن كتاب واحد بس .

(لاحظت أن مقدرته تهتز فنادى صاحبه ، ويبدو أنه طلب اسم الكتاب ثانية) أنا أحكي عن كتاب «نجران تحت الحفر» .

ضحكتُ للحفر . وبيّنت له أن الكتاب لا يتصل بشبكة المواسير ، ولا بالكوابل الأرضية للهواتف . لكنه رواية عنوانها «نجران تحت الصفر» [1]

---

(١) رواية للكاتب الفلسطيني / يحي يخلف .

وأنوي تحليلها وكشف ما فيها (قاطعني ، ضاربًا الطاولة بقبضة لا يجيد شيئًا غيرها) ..

- انت مش عارف أولاد الكلب ؟ يأكلوا الغلة ويسبّوا الملة .

ومن يومها ، صرت شاهداً وشهيداً ، النواصي والعتب صارت مأوى الصباح والمساء . أتحول بين آنٍ وآخر إلى مقهى مجاور ، أطلقت فيه العنان للساني ، بعد أن قيدوا قلمي .. ولم يعد لدي ما أخاف عليه . تحوّلت لخبر تتقاذفه أمواج وكالات الأنباء ، تصدرت صوري كبريات الصحف ، وشاشات الفضائيات .. تشاطر المحللون في رمي البلد بتهمة تكميم الأفواه .. وغلق منافذ التنفيس . وكلما توقعوا إخماد لهيب الواقعة ، تزداد تأججًا . فما كان منهم إلاَّ أن اختصروا كل المسافات الزنزانية وفق التدرج المعروف بأدراجهم ... وأحالوني إلى هنا .. (صمت قليلاً، ثم تابع بهدوء) الحديث النبوي الشريف ، يفيد «أن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً، أن يتقنه» . لذا فإني أقترح أن تنادي على زميلٍ حكايته تماثل حكايتي. هممت بالموافقة فقام لفوره مناديًا عليه :

- أهذا ترتيب أهمية قضيتي ؟

- يا رجل ، نحن نتعارف وسط حقول ملغمة .

عمومًا ، وافر الشكر وجزيل الثناء إليك يا منقذنا الوحيد ، يا أمل الغد والذي يليه . يا مهجة الفؤاد وبهجة الجبين !!

ويركبني زهو الثناء ، فيما أتصنع التطلع في أوراق أمامي وكأني مشغول عن السماع بأشياء ذات نفع كبير . ثم أتصنع النقر على الميكرفون فتنتقل الضربات بدوي يزيد من انزلاق الكلمات العسلية ، التي تزيد من قبضتي على المقعد والقعدة .

- حكايتي يا مولاي (يبدو أن لسانه جرى بهذه الكلمة) أنني خدمت

أركانهم خمسة عشر عامًا ، لم أترك ظهر جريدة ولا مجلة ، مادحًا لا قادحًا ، مطيعًا لا رافضًا أحيانًا ، يوقظونني نصف الليل ويعلمونني بأن أميراً أنهى اجتماعه مع ضيفه الكبير وأن الخبر يحتاج إلى صياغتك . أهرع إليهم ، وأصيغ واحداً للجرائد ، وواحداً للراديو ، وثالثًا للتليفزيون ، ورابعًا لوكالات الأنباء العالمية . إلى أن جاء ذلك اليوم المغبر ، المشعث ، المشئوم ، يوم أن التقطت واردة خفيفة كالريش ، بأن أميرة عشقت واحداً من بطن البلد . حسبت بأن الأمر مادة دسمة قد لا تتكرر مرة أخرى ، فأسست على عجل ، نهراً من الثناء ، على تواضع لم يشهده التاريخ بقديمه وحديثه ومعاصره «من عائلة سليلة النسب والحسب» ، أو هكذا يقول التليفزيون ، سلمت المادة مقنعًا رئيس التحرير بخبطة سبق صحفي ، ستكون سابقة فريدة . نشر الخبر ، ولكن قبل التوزيع بقليل ، فوجئنا بجماعة تقتحم المكتب ، وتنهال شتمًا ولكمًا على الجميع ، بدءاً من الخفير ، هيئة التحرير ، مجلس الإدارة ، من يومها ونحن رهن الاعتقال . عشرات الأقوال نرددها على عشرات المحققين ، وفيما كنا ننتظر الفرج لتباعد الزمن واستنفاذ الأقوال ، وإذا بالطامة تنهال على رءوسنا من جديد يوم أن عرض شريط «العقاب» ... وكانت الحُجّة ، أن الصحيفة المحجوزة تسربت بشكل أو بآخر ، للصحفي ، فأيقن أن نهاية المشهد تراچيديا . فنصب عدسته المرئية مفتوحة ليل نهار ، حتى ظفر بمشهدية الإقصاء .

ويزمجر سجّاننا بصيحة اعتادها كل يوم ، فيرتج المساكين ، معلقين أبصارهم للسماء ، كأنها تشكو لربها عنت وعبث الآثمين بأبدان الناس العافية والمعطوبة ، أتأملهم مكوّمين كتلة متقاربة الأطراف ثم أعواداً عجفاء تلوذ جيئة وذهابًا ، «وترى الناس سكارى وما هم بسكارى» ، تتأجج غضبتي على جرائر الافتعال .. فيما يصنعونه بآناء الليل وأطراف

النهار ، وتقشعر منه الأبدان ولا أحد بقادر على فعل شيء صغير أو كبير...
وأجمعهم صفًا واحدًا قبالة الباب الكبير العتيد ، أتقدم من المنتصف ، تاركًا مكاني شاغراً . أضرب الباب بقدمي اليسرى مرة ، وباليمنى مرة أخرى ، أكرر الحالة ذاتها بيدي ثم أشير للفرقة بعزف جوقتها فينفلت اللحن شجيًا ، طروبًا ، تؤطره هزات التبادل برقصات متموجة ، وتنهال علينا عصى وهراوات سجّانينا ، مدعومة بقنابل مسيلة للدموع ، وبخراطيم المياه الساخنة ، والكلاب البوليسية ، والشرطة العلنية والسرية . يسقط منا من يسقط ، ويتماسك بعضنا قدر المستطاع ... وأكون من بين من جذبوهم بالجرجرة ، أوقفوني أمام هيئة لم أقدر تبيُّن ملامح أصحابها ، لعطب في عيني :
- اسمع ، ملفاتك تحكي عن تجاوزك كل الحدود . ومافيش أمامك إلاَّ التوبة .. أو الموت .
نكست رأسي والدمع ينهمر كالمطر .. جرجرني أحدهم بإيماءة أتبيّنها ، بصعوبة دلف بي على سرير متهرىء .. جرّدني من قميصي الوحيد . شدّ وثاقي ، بعد برهة أحسست بدبيب على بطني بأرجل إبرية رفيعة ، حتى أنها تعرقلت في بدء انطلاقتها الهوجاء المتسرعة بشعب بطني الكثيفة . ثم وُضع شيئًا لم أتبينه فوق سرتي بطريقة الشفط الهوائي . رفعتُ رأسي بالقدر الذي مكّنني به الوثاق ، فرأيت كوبًا زجاجيًا صغيراً . خمنت من وقع الدبيب الذي بدا متعجلاًبأن ما تم وضعه حشرة وأنها قلقة على صغارها ، أو على أخواتها . وشيئًا فشيئًا تزداد سرعتها حدّة وتوتراً ، فأحس بميل للرأفة والشفقة عليها .. وفجأة ، تبدّل الحال ، وصار نخرها في سرتي قطعة من الموت ، تململت ، رفعت ظهري ، فلم ينكفئ الكوب اللعين . كثيراً ما كنت بعربتي أو بقدمي ، اتفادي دهس الحشرات ، فهل يشفع في التفادي ، بهذه اللحظة القاسية ؟ انتفضت ثانية ، صرختُ بأعلى

حنجرتي ، ضربتُ السرير برأسي ، توقفتْ الحشرة ، ربما سمعت الضربة ، أو ربما سمعت رجع الصدى .

تحسست بالرأس ضربة الرأس .. فألفيتها استدارة مكتملة التكوير ، تذكرت لحظتها اندلاق بطون الأمراء . ذات مرة علّق مشاغب علي أحدهم:

- أووه ، أرأيتم «الميشلان[1]» .. في جلبابه الجديد ؟!!

وتقطع عودة النخر ، رجع الذكريات ، ويزداد إصرارها على هتك جلدة بطني ، تمنيت أن تفلح بمهمتها في أقرب وقت ممكن ، عاودت الصراخ ، سمعت لغطًا قريبًا مني :

- إيش جابتلك المناوءة ؟

رمقته ببغض ، فبادرني :

- لو تقطع دابر مناوءتك بس .

ولم أجب بشيء ، فتكلم بصوت خفيض:

- آه كويس ، الصمت علامة الجواب (ثم دمدم بتلعثم) ، يعني علامة الرضا .

حاولتُ النهوض ، ولكن كيف والقيد يقيدني ؟ فك السجّان قيدي ، وقفت ، ترنحت قليلاً.. استندت على الحائط ، فيما لايزال الكوب بتشبثه المثير ، جذبته .. ومع ذلك لم تسقط خنفسة الشر . تشبثها أعماها عن كل شيء ، دهستها في مكمنها ففاحت رائحتها ، ارتد سجّاني للوراء ساداً أنفه.. ثم سقطت على ظهرها وأرجلها تضرب الفراغ بضربات أخيرة .

قَدِمَ آخر بخطو الخيلاء والزهو ، خُيِّل لي أنني رأيت الوجه ، دون أن أعرف فيما إذا كان ذلك عن قريب أو بعيد . ثم أيقنت أنه ابن سجّاني الأول . كان صنو أبيه في كل شيء :

---

(١) علامة الإطارات الفرنسية .

- شـوف ، جربنا مـعك كل الوسـائل . ومـعادش بقـى إلاَّ أفراد بيتك ليشربوا نفس الكأس !

طرح أمـامي أوراقًـا مليئـة بأسـمـاء أولادي ، مذيـلة بتوقـيع عـريض ، اسـتطعت أن اقـرأ منـهـا : دائرة الإصـلاح الكبـرى - قـسم الاسـتـدعـاء والاستجواب العاجل - رفعت وجهي لأعلى الورقة فلمحت ملاحظة تفيد بالإمهال لمدة ٢٤ ساعة ، ولكن ما ذنب صبيتي حين تصل النذالة للمساومة بهم ، خاطبتُ نفـسي ، أيقنت أن ما ستتسـامع به الأجيال اللاّحقـة سيؤجج اللهب إلى آخر المدى .. تذكرت قصيدًا يلوّح برفض الاستكانة :

«لا تصالح ، ولو وقفت ضد سيفك كل الشيوخ .[1]

والرجال التي ملأتها الشروخ .

هؤلاء الذين يحبون طعم الثريد .

وامتطاء العبيد .

هؤلاء الذين تدلت عمائمهم فوق أعينهم ...

وسيوفهم العربية قد نسيت سنوات الشموخ»

قدم كيسًا به أشيـاء بيضاء ، ترددت في الاستلام .. لكنني وفي لحظة لا أعرف كـيف أتت ، مددت يدي في الفراغ لتـعود مليئـة بذات خيبـتهم ... الكامنـة في ثنايـا بيـضـاء فضفاضـة .. تذكرت العمامـة البيضـاء الكبـيرة ودم الأبنوس .. انهمر نهـري حاراً موصلاًبحزن لا ينـقطع ... أسير بخطى الثقـل والتـباطؤ ... اكتـشف أنني أُلاحق الأرض بعرج مثير ، فـهل جُزّتْ قدمي أم أن تـغيُّراً مـا بذات الجانب أحـدثوه في غفلة منيِ ؟ أدخل شـارعنا الطويل ، تذهلني يافطات نفايات أمقتها :

- «ألاسكا ... هرم الثلج ... أوثلج الهرم ...» .

---

(١) للشاعر الراحل / أمل دنقل فى «لا تصالح» .

- «كوكولا ... دفن حقيقي للظمأ ...» .
- «كنتاكي ... الجود والجودة ...» .

أطرق باب بيتي ، أسمع صيحات مذعورة مرتجفة ... ألمح من ثقب المفتاح أولادي يجرون هنا وهناك كجرذان تفر من قدرها . المشهد شديدة الوطأة ... توقفت عن الطرق ، لمحت بالشارع أضواء تلعب عليها خفافيش صغيرة ... وجه أمهم ، كان مليئًا بندوب الجدري ، ارتمت عليَّ ... ثم غابت في الغياب ... زحزحت الكتلة البائسة ... رفعتها إلى صدري فيما قدماها ترسم خيوط وجع لا ينتهي . تحلّقت بي الوجوه الصغيرة ، ارتمت عليَّ ... أشبعتها تقبيلاً... امتزجت حشرجتي بنحيب زوجتي التي عادت لتوّها من الغياب .. تهاطل مطر الملح ... تذوقته ، ألفيته كزمن يأبى المغادرة إلى بعيد ...

●

المحتويات

من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية .. قصة

ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
لا أحد يحبك	أماني فهمي
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
دموع إيزيس	حسني لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي
الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
يومية هروب	خيري عبد الجواد
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب اطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نمنم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
الطريق والعاصفة	رأفت سليم
في لهيب الشمس	رأفت سليم
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
أنا كنده	كيروجا ترجمة : رزق أحمد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد في ظل	عبد النبي فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلي	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـد	عبده خال
صعيدي صنح	د. عزة عزت
الشاعر والحرامي	عزت الحريري
في انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيري
إينارو	د. علي فهمي خشيم
تحولات الجحش الذهبي	لوكيوس ابوليوس ترجمة د.علي فهمي خشيم
سراديب	عفاف السيد
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحي سلامة
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوي
وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
حب وظلال	كوثر عبد الدايم
ترانزيت	ليلى الشربيني
مشوار	ليلى الشربيني
الرجل	ليلى الشربيني
رجال عرفتهم	ليلى الشربيني
الحلم	ليلى الشربيني
النغم	ليلى الشربيني
الخرابة ٢٠٠٠	محمد الشرقاوي
كوميديا الإنسجام	محمد بركة
أشياء لا تموت	محمد صفوت
الحاج	محمد عبد السلام العمري
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمري
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتي الساخنة	محمد محي الدين
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الهروب مع الوطن	ممدوح القديري
نسيج الأسماء	منتصر القفاش
ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
ديسمبر الدافئ	هدى جاد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
فرد حمام	يوسف فاخوري

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - تراث - أطفال .

خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

■ ■

شمس أعودها أو تعودنى ...
مُشرقة على زرقة خليجية
محببة تتربّص بها المنون ...
والأمانى ... السموم تلفح
وجهى ... وجوه تتئد فى
خطوها على سلم الطائرة ،
كما لو أنها تتوجّس خيفة.
أهبط تُربة تماثل أخرى
هبط عليها رأسى يوم قدومى
للدنيا. التوقعات تحفر
أخدود مصائر سأكونها
وتكوننى ... أتشاغل بكتل
لحمية سوداء محببة حركت
التاريخ... بشواهد نَحنُّ إليها
وننتظر من يُعيد سيرتها
الأولى ...

■ ■

